
مصطفى محمود
إبليس

مصطفى محمود

إبليس

لوحة الغلاف وجميع رسوم الكتاب بريشة الفنان رجائى

مقدمة

الإنسان تتأكله شهوة غامضة خطرة . أخطر من شهوة الجنس .. وأخطر من شهوة الطعام .. هى شهوة العقيدة .. شهوة اليقين .. الشهوة إلى شىء يؤمن به ويصدقه .. وهو فى سبيل هذه الشهوة قد يؤمن بحجر أو صنم أو تعويذة أو حجاب أو درويش أهبل .. ليس لأنه ساذج ومغفل وإنما لأنه ضعيف .. به ضعف فطرى .. وشوق غريزى حاد إلى هدف يرتبط به .. وكلمة يصدقها وعقيدة يعتقدها .

إن كل شىء يسقط من حواليه ويذبل ويفنى . الناس والمبادىء .. والحقائق والمثل .. حتى نظريات العلم يفتتها الشك وتهدمها البحوث وتنسخها بنظريات أخرى تعلو عليها .

إنه فى معبد تتساقط أعمدته .. وتتساقط أصنامه ..

وتتساقط كلماته وهو نفسه يتساقط فى النهاية من المرض والإعياء والشيخوخة ويفنى .. ولهذا يعيش فى رعب .. الأرض تهتز من تحته وهو يتلمس حقيقة يمسك بها .. شيئاً ثابتاً يلوذ به وينجو من الهلاك .

إن مشكلته ليست الإمساك برمقه ، وإنما الإمساك بعقله الذى يذهب شعاعاً كلما تلفت حواليه .

إنه يدرك من الوهلة الأولى منذ مجيئه إلى الدنيا أنه كالمدعو إلى وليمة باذخة .. ولكن الأكل كله مسموم .. وكل المدعوين الذين يأكلونه يموتون .. بلا استثناء .

ما السر فى الوليمة إذن .. ولماذا يأكل .

إن شهوة الأكل تدفعه إلى الأكل .. وهو لا بد أن يأكل ليمسك برمقه .. ولكنه يريد أن يمسك بعقله أيضاً .. يريد أن يعرف .. من أين .. وإلى أين ولماذا .. وما هذا .. يريد يقيناً .. ولا يجد يقيناً .. ويتوسل إلى سبيل .

تجد أستاذاً فى الجامعة يؤمن بشيخ يحضر الأرواح .. وطبيباً يؤمن بالفنجان .. وامرأة مثقفة تؤمن بفاتحة بخت .

والسبب أن الثقافة نفسها لا تنجد وشهوة اليقين أكبر من الثقافة .. وأكثر إلحاحاً من أن تنتظر لتجد أجوبة أكيدة .

وفى الصعيد قابلت رجلا عجيباً .. أفندياً تخرج من التجارة .. صرافاً لفت نظرى لبسه المهلهل .. ونظراته السابحة الشاردة .

ناقشنى فى الأديان .. وفى الله ووجوده .. وفى يوم القيامة .. وقال لى : إن يوم القيامة سوف يكون فى سنة ١٩٦٠ العرافة قالت له هذا ونصحته بأن يخزن فى بيته تموين مائة سنة لأن القيامة سوف تقضى بالفناء على البشرية كلها ما عدا هو . وأنه سيكون مثل نوح الذى ينجو من الطوفان .. وأن بيته سوف يكون كسفينة نوح

التى تهب الحياة لكل من يلوذ بهـا . . وعليه أن يملأ بيته من الآن بكل أصناف الحياة . . وبكل أصناف التموين والمأكولات .

وذهبت إلى بيته لأجد حجرات بأكملها مليئة إلى السقف بأطنان من الأرز والعدس والفول والسكر والبن والشاى والصابون والكمون والكزبرة والكبريت . . وأشيـاء غريبة مثل اللبان والزئبق والصمغ . وأزواجا من الأرانب والفئران والكلاب والدجاج والبط والأوز .

لقد باع الرجل الفدادين الثلاثة التى يملكها واشترى مئونة سفينة نوح لمائة سنة :

وحكى لى أنه لم يدخل الحمام منذ شهر . . عملا بنصيحة العرافة بألا يقرب الماء أربعين يوما بالتمام حتى يتجلى له السر الأعظم ويعرف ميعاد القيامة باليوم والساعة .

وكان يبدو سعيداً وهو يروى لى إنتظاره لهـذا اليوم

الموعود . . وكانت عينـاه تبرقان وهو ينطق بكلمة السر الأعظم .

وشعرت برغبـة فى الضحك . . ولكنى ما لبثت أن إبتلعت الضحك وأحسست بالإشفاق لا على الرجل وحده وإنما الإنسانية كلها .

أربعون مليوناً من الشعب الألمانى كانوا فى أحد الأيام مثل هذا الرجل . . يمشون خلف هتلر . . ويعتقدون فى خرافة العنصر الآرى . . تماما كما يمشى هذا الرجل خلف العرافة ويعتقد فى هذيانها . . وقد دفع الرجل ثلاثة فدادين من ماله . . ودفع الشعب الألمانى خمسة ملايين روح مـن أرواحه ثمناً لهذه الشهوة . . شهوة الإيمان . . شهوة الراحة إلى يقين بأى طريق .

وفى الأضرحة التى نصادفها كلما ذهبنا فى أزقة القاهرة . . وفى قرى الأرياف . . أمثلة أخرى لهذه الشهوة موضوعة

فى علب وأمامهـــا الناس البسطاء بعيونهم الدامعة ..
يوقدون الشموع .

وفى كل مكان يبحث الإنسان التعس الذى تذروه رياح الشكوك عن يقين يبحث عن زعامة يؤمن بها إيماناً مطلقاً أو فكرة يدين بها ديانة عمياء .. أو صنماً يركع أمامه ويستشيره .. إنه يطلب الراحة النفسية بأى ثمن .. إلا الفيلسوف إنه وحده الذى وحده الذى يرفض المقدسات والمسلمات ويصر على مواجهة المأساة برمتها .. ويصر على البقاء فى المعبد .. بينما أعمدته وأصنامه وكلماته تنهار وتتحطم على رأسه .. ويرفض أن يلوذ بخرافة أو كذبة .. ليستريح .

إن شهوة الحقيقة عنده أقوى من شهوة الإيمان ..
وألم الشك عنده أرحم من ألم التزييف والتضليل .

إنه لا يستطيع أن يضلل نفسه ولا يملك إلا أن

يقف بين المتناقضات يتمزق .. باحثاً عن حـــل مخلص من خلال محنته .

إن المؤمنين يقولون عنه أنه ملحد .. ولكنه ليس ملحداً .. وإنما هو مؤمن على مستوى أرفع من إيمانهم .. شهوته أرقى من شهوتهم .. وهدفه أبعد من أهدافهم .. والثمن الذى يدفعه أبهظ من كل الأثمان التى يدفعونها .. إنه يسكن فى أرض الزلازل ليعرف حقيقتها .. ويقضى عمره يرتجف .. والأرض من تحته تنشق مرة بعد أخرى .. وكلما خيل إليه أنه وصل إلى حقيقة ثابتة انشقت الأرض عن هوة تحتها .. لا يصده عن غايته خوف ولا طمع .

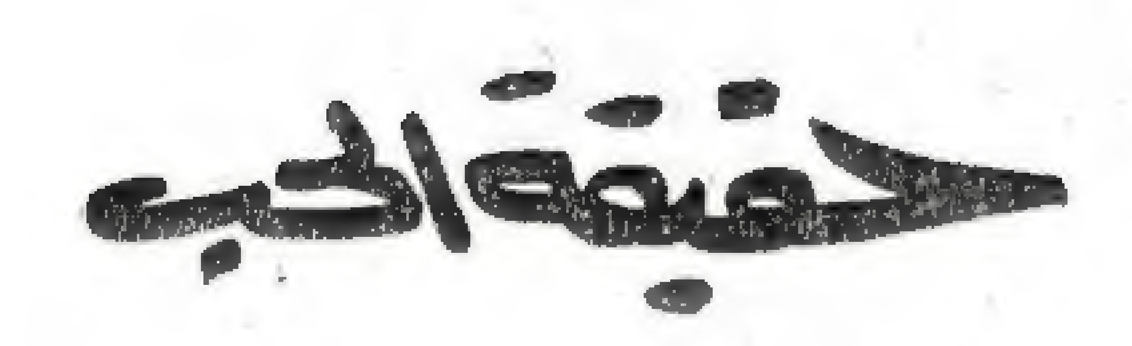
الموت أو الجنون هو الذى يمكن أن يعفيه .. إن الفيلسوف هو الفدائى الذى يطهر المستقبل من الألغام الفكرية التى وضعها المفكرون القدامى فيه .. هو الذى يرفع التقاليد من مكانها .. وهو الذى يحطم ألواح الوصايا ليضع وصايا

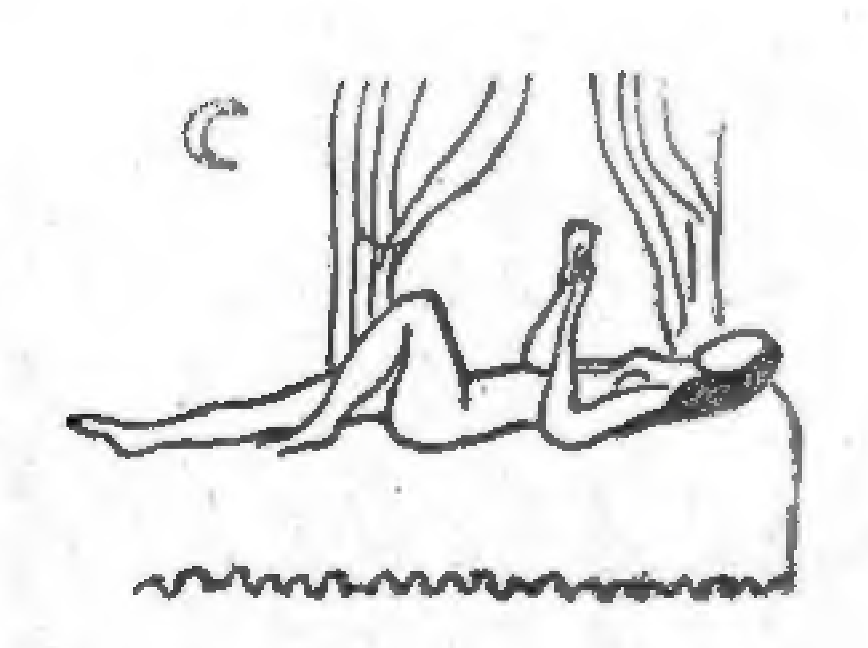
جديدة وكل لغم من الألغام ينفجر فى عقله وينفجر معه غضب الناس وسخطهم واضطهادهم .. ولكنه يمضى فى طريقه لا يهتم .. وربما قاده الطريق إلى الصليب أو المشنقة .. أو المحرقة .. أو السجن ولكنه لا يبالى .. لأنه أدرك الحقيقة الكبرى .. إن الفناء فى جوهره .. وأنه ميت لا محالة .. بل هو ميت من الآن يدب على ساقين .. فليقل كلمته وليتحطم ليقلها فى وجه الناس .. ولا داعى للخوف فكل شىء فى الدنيا موضع شك ..

وأنا حينما كتبت هذا الكتاب كانت عندى شهوة حقيقة وكنت أحس أن كثيراً من الأشياء حولى موضع شك .. وكثيراً من الأسئلة بلا جواب ..

وكتابى هو الخطوات القليلة التى مشيتها باحثا عن جواب .. باحثا عن حل ..

مصطفى محمود





اللذة ..

منذ أيام بدأت أطالع فى كتب علمية كبيرة ومراجع من ألف صفحة . وعـــدت إلى نفسى القديمة ، إلى الطبيب القديم ، الذى يضع كل شىء فى مخبار ويقيسه ويزنه ويحرقه فى بوتقة ثم يذيبه فى ماء مقطر ويضع فيه ورقة عباد شمس ..

وأحسست أنى كلما توغلت فى القراءة العلمية .. تغير طعم الحياة فى فمى .

إن النسيم ليس نسيما يستحم فى الضوء ويشعشع روحى ولكنه نتروجين وأكسوجين وثانى أكسيد كربون ونشادر .. وهليوم ، وأراجون .. وغبار .. وذرات ماء معلقة .. وأشعة كونية .

والبحر ليس بحراً ، ولكنه أملاح صوديوم . وبوتاسيوم ومغنسيوم وكالسيوم .

ورغيف الخبز ليس رغيفاً طرياً شهياً ، ولكنه مواد كربوايدراتية . وبروتينية .. ودهنية . وفيتامينات .

وعصير المانجو اللذيذ ، عبارة عن جلوكوز . وفركتوز . وسكروز .

حتى القبلة الممتعة ، ليست سوى تدفق هرمونات فى الشرايين .. وافرازات حمضية عند أطراف الأعصاب .

ولهفة اللقاء ليست سوى هبوط فى الأحشاء وانخفاض فى ضغط الدم .

ولوعة العشق ارتفاع فى نسبة التستوستيرون والإسترين ...

وذكريات الحب الجميلة وخيالاته مجرد مواد ومركبات .

وقصائد شكسبير الخالدة ، كانت قبل أن يكتبها أحماضاً وقلويات فى ذهنه.

شىء لا يطاق.

وألقيت بالكتب الكبيرة ، والمراجع الضخمة من ألف صفحة.

إن إحساسى وأنا أقبل حبيبتى أنى أعطيها شربة هرمونات .. إحساس يغيظ.

ومنظر مصرانى الغليظ وهو يهبط أثناء نظرة حب ملهوفة .. يقتل الحب .. ويقتلنى من الاشمئزاز.

وتصور لحظات الفراش الممتعة على شكل سحاحة وعاليل عيارية . شىء لا يحتمل.

إننا نشعر بالسعادة لأننا لا نتفرج على أنفسنا ونحن سعداء. ولا نحلل طبائعنا أثناء لحظة السرور .. وإنما نعيش هذه اللحظة وتندمج فيهـــا .. ونكون نحن



واللحظة شيئاً واحداً ، أما رجل العلم فيستأجر لوج يتفرج فيه على نفسه ويحللها ويقطعها نصفين . . ثم يقطع النصف نصفين ثم يعصر عليه لمونة . . ويراقب التفاعل ، ويسجل النتائج فى ورقة .

إنه يضحى بمتعة الشعور فى سبيل متعة المعرفة . . وهو لهذا رجل مستريح على الدوام ، بعيد عن زوابع القلق ، لأن استمتاع المعرفة مثـــل استمتاع الشطرنج ، هادىء مسترخ على مقعد . أما لذة العاطفة ، فهى فوران وغليان وحركة فى داخل الوجود كله .

إن الطبيب حينما يكشف على امرأة عارية لا ينظر إليها بقلبه ، ولكنه ينظر إليها بعقله . . إنه يقطع صلة الشعور التى تربطه بمريضته ، ويكتفى بالتفرج . . وهو لهذا لا يبكى إذا اكتشف أن مريضته عندها سرطان . . ولا يرقص من الفرح إذا اكتشف أن عندها زكاماً . . إنه حانوتى يضع الميت فى كيس دبلان كأنه يضع بضاعة عادية أو إردب قمح

والطبيب لا يندمج فى حالاته ، وإنما يقف على الباب يسجل ملاحظاته . . الحرارة ، والنبض ، والتنفس ، والدم ، والبول . . مجرد ملاحظات فكة يضعها فى رسم بيانى ، ويستخرج منها تشخيصاً وعلاجاً . يصنع كل هذا ببساطة للمريض . وبدون انفعال ، وبدون عاطفة . لأن العاطفة والانفعال والحزن والفرح من شأن المريض وليست من شأنه .. إن المريض فى حالة حياة . . وهو فى حالة فرجة على الحياة .

تذكرت هذه التجربة وأنا جالس مسترخى فى غرفة صديق . وعينى فى عينه ، ومخى فى الهواء . . معلق . يفـــكر ، وقلبى معلق معه ، والاثنان معلقان من حبال أعصابى يرقصان رقصة خيالية مجنونة

وكان صديق يتكلم فى السياسة ، وأنا أجيب عليه من وقت لآخر بكلمة : نعم ، آه ، أيوه ، معـــلوم ، مضبوط ، فى محله . !

وأخيرا سمعت صديقى يضحك ويقول وهو يهزنى :

— هو إيه يا جدع انت اللى فى محله ده ؟ أقولك نعلن الحرب على إنجلترا .. تقول فى محله ؟ دست بابى عليك مش فى محلك خالص .

وأخذ يقهقه .. ثم قال :

إسمع بقه .. انت الطريقة بتاعتك فى الحب دى مش عاجبانى .

— طريقة إيه ؟

— طريقةانك تنزل بدماغك وأعصابك وقلبك ودمك ولحمك فى كل غرام كده .. ما ينفعش .

— مش فاهم ؟

— بالضبط .. انت مش فاهم .. إنت مش فاهم ازاى تحب لغاية دلوقت ؟ .

— علمنى ازاى أحب طيب ؟

— حب بحاجة وخلى حاجه .. حب بلسانك .. حب بعقلك .. حب بعنيك .. خلى قلبك لنفسك ولنا .. ما تندمجش كده .. اتفرج .. بوس كأنك بتمرج .. روح للميعاد أكنك رايح لمرمض .

— يعنى أبقى ناقد مش عاشق .

— مفيش طريقة غير كده والا البنـــات يشربوك ويحلو بيك .

وهنا تذكرت التجربة التى مرت بى وأنا غارق فى الكتب الكبيرة من ألف صفحة .

إن صديقى يعتقد أن الصيانة الوحيدة للعاشق هى أن يتحول إلى طبيب يسجل ملاحظات عن تجارب القبل والأحضان ولا يندمج فيها . وصديقى على صواب . فوظيفة الملاحظ أكثر راحة من وظيفة الرجل الذى يعيش فى دوره ، إنه لا يخسر ولا يكسب لأنه خارج الحلقة ، إنه مجرد حكم ، ولكن ثمن هذا النوع من الراحة فادح ؛

فالملاحظ لا يعانى اللذة ولا الألم ، إنه يتمتع بنوع بارد من المتعة ، هو المعرفة ؛ ويخسر فى مقابلة لذات الانفعال .

إن صديقى يريد أن يحمينى الألم بأن يجنبنى اللذة أيضاً ، ويحولنى إلى مجرد محرر وصحفى حتى فى علاقاتى العاطفية .

ونظرت إلى صديقى طويلا . .

ولأول مرة تأكدت أنه دكتور يحمل ميداليات التشريح والفسيولوجيا على صدره . . بينما أنا غلبان . . دكتور بالوراثة فقط . .

وحينما كنا نسير فى الطريق أنا وصديقى . . كنت مازلت أفكر فى هذين الأسلوبين من الحياة : أسلوب الذى يعيش ، وأسلوب الذى يتفرج . . والمكسب والخسارة الذى يتكلفه كل أسلوب ، والاختيار الذى اختاره إذا كان لابد من اختيار .

وكان صديقى ما يزال يتكلم فى السياسة ، وكنت

ما أزال أجاوب عليه : بنعم . . وآه . . وأيوه ومضبوط . . وفى محله . . وأنا ولا هنا . . ولا فى محلى بالمرة .

وكان من الواضح أنى اخترت طريقى من زمن طويل . . وقبلت التـــكاليف . .

وحينما بلغت منزلى وتمددت فى فراشى كنت ما أزال أفكر فى لذة الحب . .

لقد اكتشفت أن الطريق إلى اللذة فى الحب هو الإندماج . . معايشة التجربة بخسائرها ومكاسبها . . والنبض معها فى كل نبضة . . والتأوه معها فى كل آهة . .

ولكن بقى سؤال ظل يشغل بالى . .

ما هى حقيقة الحب ؟

إن الشعور بالحب والتلذذ به شىء وحقيقته شىء

آخر .. وأنا أريد أن أعرف الحقيقة . ولا يكفينى أن أشعر بها ..

أريد أن أصل إلى معرفة واضحة لحقيقة الحب . ما معنى كلمة حب بالضبط . ومتى يكون الحب حقيقياً وهل هناك حب حقيقى ؟ ..

وكانت هذه الأسئلة كثيرة على رأسى التى بدأت تدور دوار النوم .. فأطفأت المصباح ..

الباب

كانت الساعة تدق الواحدة .. والليل عميق .. مفروش أمامى كلوحة غير محدودة .. أرسم فوقها ثم أمحو .. ثم أرسم .. وأعبث ..

وكان فى يدى ذلك القفل السحرى .. أحاول أن أعثر على الأرقام التى تفتحه ..

أنه قفل معلق على بوابة كل قلب يفتحه مفتاح واحد إسمه الحب ..

وكنت أبحث هذه الليلة عن حقيقة الحب . تلك الحقيقة البسيطة التى تلتقطها حواسنا .. قبل أن تدركها عقولنا ..

كنت أحاول فى هذه المرة أن أدرك الحب قبل أن يدركنى .

أن الحب فى مجتمعنا عاطفة معقدة .. لأن مجتمعنا

نفسه معقد . كل شىء فى مجتمعنا العصرى صناعى حتى الكلام أسلوب صناعى للتعبير نصفه يضيع فى التكلف والمجاملات . ونصفه الآخر يضيع فى الخوف والخجل .. وهذا تتشى شىء فهو يخرج من الفم وقد تحول إلى كذبة .. وحياتنا صناعية الطعام والشراب والمواصلات والمراسلات . كل جزء من حياتنا تصنعه شركة أو يقوم على تركيبه مصنع . والانسان فى داخل هذه الآلة الجهنمية فاقد لوعيه . فاقد لنفسه . فاقد لفطرته البيضاء النظيفة ..

لقد شوهته المداخن بالهباب ومسحة صراع الطبقات وأحرقه النهش والتكالب الفردى على الأرباح والمغانم .

والنتيجة أن علاقاتنا ليست طبيعية . حبنا ليس طبيعيا .. وكراهيتنا ليست طبيعية

هناك مسخ لكل عواطفنا .. مسخ يحدث فى داخلنا دون أن ندرى ..

إن ما نسميه حبا هو فى أغلبه شطارة .. فى أغلبه تاكتيك . وتخطيط . وتدبير وفهلوة ومعركة حامية بين أدمغة عكرة أنانية لا بين قلوب صافية ..

الحب عملية تركيبية مفتعلة تؤلفها مؤثرات خارجية تخطط الميول ومرحها وإهاجتها .. وليست عملية طبيعية تنشأ من داخلنا ..

حتى لذة الجنس أصبحت تأثير الشطارة مثل لذة العجلاتى الذى يركب السكليته ليقوم بحركات بهلوانية .

لقد خلت هى الأخرى من الإنسجام الفطرى البسيط ..

لا يمكن أن نسمى هذا الذى نمارسه فى الشوارع والحدائق ونوافذ البيوت والصالونات والتليفونات حبا .

أنه مباريات شطرنج .. واستعراض مواهب وعضلات ..

أنه نوع غريب من التمتع .. يتمتع فيه كل فرد بنفسه .. بقوته .. وسطوته .. وقدراته

وهو تمتع حقير أناني ينتحل صفة الحب .. ويكذب .. ويكذب بصفاقه وتبجح ..

والحب أحياناً يعبر عن عقد نفسية فينا لا علاقة لها بمن نحبهم بالمرة ..

قد يعبر عن مركب النقص . أو مركب العظمة . أو الخضوع .. أو السادية .. أو حالات من الشبق الجنسي المريض .. أو الهستيريا .. أو الهروب

قد يختار الواحد منا أمرأة قبيحة كسيحة لتكون موضوع حبه : لأنه يشعر أنه ناقص

وقد يستخدم الواحد منا غرامياته معرضا يعرض فيه قدراته وتفوقه لأنه مصاب بهوس العظمة ..

وقد يلجأ المحب إلى تعذيب حبيبته إذا كان ساديا . .



أو قد يخضع لهـــا ويجد لذة فى تقبيل حذائها إذا كان ماسوشيا .. وقد يكون حبه هستيريا يتوقف فيها القلب .. ويشل الوجدان .. تماما مثل الهستيريا العضوية التى تصيب الأطراف بالشلل الوهمى . فيقول الواحد منا :

ـ أنا أحب هذه المرأة .. أنا أعبدها .. أنا تعيس .. أنا عاجز عن التفكير فى أى شىء سواها ..

والواقع أنه لا يحبها .. وأن أعماقه خالية من التفكير فيها بالمرة .. وإنما هو واهم ..

وقد يكون حبنا هروبا .. قد يكون هروبا من المذاكرة .. أو من وطأة الحيـــاة اليومية .. أو من مسئوليات البيت المرهقة .. أو هروبا من أنفسنا ..

وفى كل هذه الحالات لا يكون حبنا حبا .. وإنما يكون عاطفة عليها هباب ثقيـــل من صراع الأفراد والطبقات .. وإفراز لعقد نفسية تنضح بالمر والعلقم والصديد .

إنك تشاهد حالات غريبة من الحب .. فى البيوت .. وفى أماكن العمل .. وفى المدارس .. أغرب من الروايات التى تعرضها السينما ..

تشاهد المرأة التى تجرى خلف الرجل وتلهث وراءه تغريه وتتوسل إليه وتقبل يديه .. وتبكى وتستعطف .. وتصاب بالاغماء .. وتفقد وعيها على صدره .. وتظل تطارده حتى يستسلم .. ويصدق ويحبها .. ويتزوجها .. فماذا تكون النتيجة ..

تبدأ فى تعذيبه .. وكيه .. ولسعه .. وكهربة أعصابه .. والمشى فوق مخه بالليل وبالنهار .. وهى فى نفس الوقت تمشى على أعصابها هى الأخرى وعلى قلبها .. وعلى عواطفها التى أحرقتها لمدة سنين فى البكاء خلفه .

ما السبب ؟ ..

ما السر فى سكبها الدموع على شىء لا تحس به ؟

ما السر فى جريها وراء شىء لا تحرص عليه ؟

انها تبعثر حياتها ووقتها وشبابها وتحسر على طول الخط

هل يكون هذا حبا .. لا .. إنه جنون .. هوس ..

انها لوثة الحرية الخربة التى تصيب هذا الجيل .

انه لا يعرف ماذا يفعل بنفسه .. لقد وجد يديه خاليتين من التقيد لأول مرة فبدأ يبعثر ويعبث .. بدون فكرة واضحة فى ذهنه ..

* * *

وأنت تعثر على نوع آخر من الهوس .. على الرجل الصلب والمرأة الصلبة .. الرجل المتأبى المتعفف، المتمنع الذى يغلى فى داخله ولا ينطق ... ولا يفصح عن شىء مما يعتمل بقلبه ..

وقد تجد اثنين من هذا النوع يتحابان من الداخل دون أن يتبادلا كلمة أو نظرة صريحة أو لقاء .. وإذا تكلما فهما يطرقان كل الموضوعات إلا الموضـــوع الذى يشغلهما ..

ومثل هذا الحب الذى يولد مخنوقا .. يموت غريقا فى النهاية .. غريق الواقع والضرورات وينتهى أمر الاثنين إلى زواج تقليدى عن طريق الخاطبـــة .. أو الأم أو الأب .. ويفشل الزواج كما فشل الحب .. وينتحر الكبرياء على مذبح الغباء والجهل ..

هل يكون هذا حبا .. لا .. إنه مزيج من عدم الثقة والجبن والخوف والتردد .. وميراث عتيق من التقاليد الميتة ..

انها عفة ضالة ملعونة مثل الحرية العابثة تماما .. ونهاية الاثنين الضياع فى سلة مهملات واحدة ..

وهناك نوع ثالث يفشل فى الحب .. ويعى هذا الفشل أو لا يعيه .. فيهرب منه بالاغراق فى لذات جنسية حادة متعددة .. ولا يكف عن التهافت حتى يدركه التعب والاعياء .. وعمر هذا النوع محدود بفترة الشباب القصيرة وبعمر الجمال الوردى .. فإذا بدأ الورد يذبل .. بدأت

النهاية .. وهى دائما بشعة تستدر الشفقة ..

وهكذا تتعاقب أشكال الحب فى مجتمعنا فى حلقات كحلقات الملائكة .. وكباريهات آخر الليل ..

وقد تجد بينها قبة شيخ وضع قلبه فى ضريح وأغلق عليه .. أو صومعة راهبة تصوم سبعة أيام كل أسبوع ..

وقد تسحب شباكك فى البحث عن حب واحد حقيق فلا تجده . وإذا وجدته تجد عليه شوهة أو أثر حرق أو بقية من التهاب قديم ..

وتمضى تتسائل بعد أن تكون قد كشفت السر .. وعرفت سر التشويه فى الداء الذى يكمن فى مجتمعنا وصراعه وفرديته .. تمضى تتساءل بعد هذا .. وما هو الحب الصحيح ..

ما هى حقيقة الحب ؟

وهذا يعود بى إلى القفل السحرى الذى أعبث به فى يدى باحثا عن مفتاحه فى ظلمة الليل ..

المفتاح

أين الحب الصحيح ؟ ..

إن علاقاتنا مشوهة .. لأن مجتمعنا يتصارع .. ويدخل كل اثنين فى سباق غير شريف غير متكافىء .

كل واحد شعاره .. أريد أن أفوز .. أريد أن أنتصر ..

كل واحد شعاره .. أنا .. أنا .. أنا ..

والنتيجة أن حبنا يمسخه الغرور .. والأنانية . والكبرياء .. والتعاظم .. والأمراض النفسية .. والعقد

حبنا مجرد علاقة ينفث كل منا فيها سمه وعسله وما أكثر السم .. وما أقل العسل .

كيف تفسر عواطف رجل لا تحركه إلا زوجات الآخرين أتكون هذه العواطف حبا .. لا يمكن .. أنها

نوع من المبارزة تنتهى فورتها وحماسها بمجرد الانتصار ..

أنه يريد أن يوضع فى محل المقارنة من رجل آخر وينتصر عليه .. والزوجة فى هذه اللعبة مجرد ماده لغروره . والحب .. مسرة عقليه لا عاطفة فيها بالمرة ..

وقد يظل الزوج يكره زوجته حتى ينازلها رجل آخر فيهتاج ويثور ويغلق عليها الأبواب والنوافذ ويلقى بالتليفون فى الشارع .. ويأخذ فى الالتفات إليها وإلى محاسنها .. ويأخذ فى مغازلتها ..

أيكون هذا الحب الفجائى حباً .. لا .. أنه مجرد كرامة .. أنه لا يحتمل أن يكون الفاشل فى معركة غزل ..

أين الحب الصحيح إذن .. أين هو تحت ركام هذه العقد والانحرافات ..

أنه موجود .. مثل الماء فى باطن الأرض .. يكفى أن تدق عليه ماسورة فينفجر فى ينبوع لا ينضب .

الحب إحساس جاهز فطرى فى داخلنا .. ينمو إذا واتته الظروف .. وهو يسمو دائماً من الداخل .. بدون مؤثرات بهلوانية من الخارج .. وبدون تمثيل وافتعال وكذب ..

وهو يضيع ويفقد فى اللحظة التى يبدأ فيها الاثنان يصنعانه صنعاً كما تصنع الأدوية التركيب من اختلاط العواطف والتاكتيكات والمؤثرات ..

إنه إحساس داخلى ينمو بطريقة تلقائية .. بدون قصد أو نية .. من التقاء اثنين ..

ويبدأ بإحساس فطرى بالسرور والفرح والسعادة والارتياح لمجرد التلاقى .. بدون الحاجة إلى كلام .. أو محاضرات .. ثم ينمو .

ويأخذ كل حبيب يعطى من ذات نفسه لحبيبه دون أن يدرى .. يأخذ فى التضحية دون أن يدرى أنه يضحى ..

ويتبادل الاثنان اهتمامات كثيرة لا حصر لها.. وكل منهما يهتم بالآخر ويحمل همومه.. ويتعذب بعذاباته.. ويقلق لقلقه.. ويفرح لفرحه..

وكل منهما لا يطلب شيئا من الآخر.. أنه يعطى ولا يطلب.. انه يريد أن يرى حبيبه كما هو.. لا أكثر

وهو لا يجد حاجة إلى الكذب والادعاء والتمثيل وهو يحس بالأمن إلى جواره.. يحس أنه سكن يأوى إليه ويستريح حيث الظل والماء والطعام والفراش المريح..

وهذا الإحساس بالسكن والاكتفاء هو الذى يعطيه الشعور بالأمان.. وبأنه فى غنى عن كل الناس.

وفى حب حقيقى.. توجد لذة من نوع آخر غير لذة الصداقة والانسجام العقلى.. لذة هى مزيج من السخونة والتخدير والتنميل.. ونوم مؤقت فى التفكير يبعث فى الجسد التلذذ والاسترخاء.. ويبعث فى القلب تفتحا

وإشراقا.. ويجعل الكلام والضحك شبيها بالاحتضان.

وفى حب حقيقى عنيف يمكن أن تؤدى القبلة ما تؤديه لذة جنسية كاملة.. ويمكن أن تكون لمسة اليد شيئا لذيذا.. ممتعا..

والحب الصحيح خال من الغرض.. وإنما تأتى الأغراض فيما بعد.. حينما يحس كل حبيب أنه عاجز عن الحياة بدون الآخر وأنه فى حاجة إليه كل يوم وكل لحظة ولا وسيلة إلى ذلك فى مجتمعنا إلا بالزواج.

ولهذا لا يكون الزواج هدفا مقصودا من البداية وإنما يكون نتيجة يتورط فيها الاثنان لفرط ما هما فيه من الحب..

حتى الإخلاص لا يتم باتفاق وتعاقد.. وإنما يتم من تلقاء نفسه حينما يحس كل من الحبيبين أنه يمتلىء بالآخر وأنه لا يجد مكانا فى نفسه لحب ثان..

أنه يصحو فيكتشف أنه مخلص . . وأن ذهنه محصور في شخص واحد . . يدور في فلكه . .

• • •

هذا هو الحب الصحيح لكن كيف نحصل عليه لا توجد إلا وسيلة واحدة . . أن نتغير . . أن نصل إلى درجة من الطهارة الداخلية . . أن نغسل أنفسنا أولا بأول من سموم ورواسب مجتمعنا وهذا ممكن إلى حد كبير . .

وهو غير ممكن في الطبقات الفقيرة المطحونة التي تعيش تحت مستوى الحياة . . ولا في الطبقات المتخمة البليدة التي تعيش في حالة قار وتبذل ومراهمات وحفلات وأكاذيب . .

إن الطبقة الأولى في حالة عدم وعى والطبقة الثانية تعيش حياة تنكرية كرنفالية كل مافيها مزيف حتى قطع الثياب . . حتى الانحناءات والمجاملات فرنسية .

إن الحرب الطاحنة بين الأفراد . . والحياة التي تشبه المزاد . . هي سر المسخ في عـــلاقات الحب والصداقة . .



ولیس معنى هذا أن نقف عاجزين عن الحب . . ففى الإمكان دائما أن نفعل شيئاً . :

فى الامكان تطويع السلوك لعلاقات المجتمع المريضة . :

وفى الإمكان تعصيته . .

فى إمكانك أن ترفض الرشوة والكذب والسرقة وفى إمكانك أن ترفض الدخول فى سباق مهين .

وفى إمكانك أن تقاوم الغرور والأنانية وأن تكتشف عيوبك النفسية وتعالجها .

فى إمكانك أن تقوم سلوكك بالنقد . .

فى إمكانك أن تضيف سوسته عند كل مطب اجتماعى تقع فيه فتتجنب أن تصيبه جراح ورضوض فى أخلاقك .

فى إمكانك أن تتجنب الترخص والصغار فى سبيل متعة مؤقتة . . وانتصار تافه . .

فى إمكانك أن تفعل كل هذا وأكثر إذا بلغت النضج وأدركت القيم وأحسست بوزن كل قيمة ومكانها الطبيعى :

وأنا شخصياً أعتقد أن الحب الصحيح موجود . . وممكن ويستحق أن نتعب من أجل الحصول عليه . .



إبليس

الإنسان مصاب بذعر..

فى خيالاته.. وأحلامه.. وتصوراته. شبح يطاردة على الدوام هو شبح خطاياه..

وهو قلق حائر. يلتمس لنفسه العذر مرة فى إغواء إبليس..

ومرة أخرى يعترف بخطيئته ويحسو على رأسه التراب ومرة ثالثة يتمرد ويحطم ألواح الوصايا ويكفر بكل شىء..

ومرة رابعة يغرق فى بحار التأمل ويفلسف ذنوبه..

ولكنه واقع فى المشكلة مهما بدا أنه تخلص منها.

أنها موجودة فى كتبه وأدبه وفنونه.

* * *

فى الميثولوجيا الأغريقية قصة طويلة جميلة عن أصل الشر..

كان العالم فى بدايته شبيها بالجنة.. وكان البشر يعيشون خالدين. وكلهم من جنس واحد لا يلد.. ولا يولد.. ولا يتزاوج..

لم يكن فيهم نساء ولا أطفال ولا شيوخ.. ولم يكن فيهم مرضى ولا أشرار ولا معاتبة..

وكانت الأرض تعمل من أجلهم فتنبت الزرع بدون محراث وبدون فأس وتقدم لهم فاكهتها وثمارها.. وهم مسترخون على مروجها الخضراء يأكلون ويشربون ويمرحون ولا يفكرون فى شىء.

وأراد الرب زيوس أن يمتحنهم فابتلاهم بالفصول وإذا بهم يفتحون عيونهم فى أحد الأيام فيجدون الأرض عارية جرداء باردة ترتعد فى ثوب مهلهل من ثياب الخريف

ولم يجدوا بدا من العمل..

وتلوثت أيديهم بالتراب والطين والعرق فسخطوا على الرب وامتنعوا عن تقديم القرابين إلى مذبحه.

وهنا أدرك زيوس أنهم من جنس لعين.. وأنزل عليهم عقابه.. وكان هذا العقاب هو المرأة.. فقد أنزل عليهم باندورا العذراء الجميلة الساحرة التى سواها بيديه.. ووضع فيها كل فتنة العالمين.. وأعطاها هدية تقدمها إلى أول زوج تتزوجه.. عبارة عن قمقم مغلق.. أمرها بألا تفتحه أبدا.. لا هى ولا زوجها..

وكان الرب يعلم بحكم الفضول الذى خلقه فيها أنها سوف تفتحه..

وفتحت باندورا القمقم.. وانطلقت منه زبانية الشرور ترفرف فى السماء بأجنحة تقطر دما وتصرخ صراخا رهيبا..

وعم الأرض الفساد والمرض والجهل وأكلتها الحروب والمجاعات .. وتدهور الجنس البشرى إلى سلالة من الحيوانات تعض بعضها بعضا ..

وبلغت نقمة زيوس غايتها فأمر السموات أن ترعد ومياه البحر أن تمور .. والسحب أن تتجمع وأن تصب ما فى داخلها من ماء فتغرق الأرض بمن عليها .. وما لبث أن شمل الأرض طوفان أهلك أخضرها ويابسها ..

ثم ذهب غضب الرب وأدركه اللطف بعباده فأمر الماء أن ينحسر ومن جنس آدم قد فنى كله فيما عدا زوجين طاهرين احتميا بقمة جبل بارناسوس باليونان هما دوكاليون وبيرا .. كتب لهما الرب النجاة .. وكتب للأرض أن تعمر من جديد بنسلهما .

* * *

وفى هذه الأسطورة ملامح من الأفكار الدينية

عامة .. ففيها فكرة الخطيئة وفكرة إبليس وفكرة الطوفان ..

والكتب القديمة تتفق كلها حول ميلاد فكرة الشر ..

أنها جميعا تقول أن الشر قوة خارجة عن الإنسان تغريه وتفتنه .. وتوقعه فى حبائلها .. قوة ميتافيزيقية من وراء الطبيعة ..

* * *

ولكن الكتب تغير آراءها بسرعة .. لأن الناس يتساءلون .. والإنسان مدمن تساؤل لا شفاء لإدمانه أبدا ..

والسؤال الذى ظل يلح ويلح على ذهنه هو سؤال محير ..

أمن الممكن أن يعيش الإنسان فى جزيرة منفردا .. متوحدا ويكون فاضلا أو شريرا وكيف ؟

كيف ؟

أيكون إلقاؤه الحصاة فى الهواء شرا ؟

أيكون تجوله عاريا بدون ورقة توت شرا ؟

وإذا ضرب الصخر بقدمه وبصق عليه أ يكون قد فعل شرا ؟

لا .. لا يمكن أن يكون أى فعل من هذه الأفعال شرا ..

أن المنفرد لا يمكن أن يوصف بأنه فاضل أو شرير ..

أن الأخلاق تظل بدون معنى حتى ينشأ مجتمع وتنشأ علاقات واحتكاكات .. ومنافع وأضرار . وملذات وآلام يبدأ الشر .. وحينئذ تولد كلمة شر .. وكلمة خير ..

أن الدعوى بأن الشر قوة ميتافيزيقية من وراء العقل دعوى خرافية .

أن الشر ابن المجتمع ..

وكانت هذه الحقيقة جديده ومحيره ..

محيره لأن معناها أن يبدأ المفكرون من جديد فى البحث عن نظريات جديدة لمعنى الخير والشر ..

وبدأت عهود طويلة من التخبط ..

• • •

قال سقراط أن الفضيلة هى المعرفة .. والرذيلة هى الجهل .. وأن السبيل إلى السلوك الصحيح هو أن يعرف صاحبه أين السبيل الصحيح ..

إن العقل هو أداة الفضيلة .

وقال أرسطو أن العقل يقودنا نحو الوسط ... يقودنا نحو (العفة والشجاعة والسخاء) . لأن العفة وسط بين الشهوة والبرود .. والشجاعة وسط بين التهور والجبن — والسخاء وسط بين الاسراف والبخل ..

ومضى سنيكا خطوة أخرى فقال أن العقل يجب أن

يسود كل الرغبات .. وأن الفضيلة هى الامتناع .. وضبط جميع الرغبات... هى حياة رهبان يأكلون حساء الشعير ولا يقربون النساء ..

لعقل .. العقل ..

ومضت مئات السنين .. والناس الفضلاء هم العقلاء وحدهم ..

ثم طلع نيتشه وداروين وشوبنهور وميكافيللى بمذهب آخر هو القوة ..

أثبت فرويد فى ثلاثة آلاف صفحة أن العقل ضعيف ضعيف جداً .. مجرد قشرة تغلى تحتها الغرائز والرغبات وأن الرغبة هى التى تقود .. وأنها هى العقل الحقيق ..

وقال داروين أن الحياة صراع وأن البقاء للأصلح وأن قوة الناب والمخلب هى التى تحكم الأرض وليست الفضائل ..

وقال شوبنهور أن العقل خادم للرغبة . . وأن درهم



رغبة أقوى من قنطار منطق .. وأننا نحب الأشياء لأننا نرغبها وليس لأنها معقولة . .

ونظر ميكيافيللى حـــوله بدهاء السياسى ليستخلص حكمته العملية الشهيرة . .

ما دام المنطق لا يزن شيئاً . . والقوة هى كل شىء . . فعلينا أن نصل أولا ونصبح أقوياء . . وأى طريق يوصلنا هو طريق فاضل . . والغاية تبرر الواسطة . .

وأمسك نيتشه بقيثارته المجنونة وانطلق يغنى :

أريد أن أعيش على حافة بركان . .

أريد أن أحيا فى حرب دائمة . .

أريد حياة مثل الشعلة . .

. . دافقة بالقوة والخطر .

وإذا كانت الخطيئة سبيلى . .

فسوف أمصها وأروى بها شجرتى ولا خطيئة فى نظرى سوى الضعف .

ووقف رجل الشارع يتلفت حوله بعقله البسيط .

لا يجهد نفسه فى التفكير . . فقد ورث عن آبائه فضيلة قديمة أثبتت صلاحيتها دائماً هى . . الحذر . .

أن الفضيلة عنده هى أن يفعل أى شىء فى الخفاء . . بعيداً عن أعين الشرطة . .

وفى الجبال والبرارى والصحارى .. ظل الراهب على حاله لم يداخله شك فى كتبه القديمة . . .

أن الفضيلة عنده هى طاعة الله . . والرذيلة طاعة النفس . . والسبيل إلى إدراك الخير من الشر ليس العقل والمنطق وإنما الضمير . .

والضمير عضو سماوى روحانى مركب فى الإنسان أوامره مطلقة . . ونواهيه مطلقة فلنستمع إذن إلى ما تقوله ضمائرنا ولنكف عن السفسطة . .

وظل التخبط على أشده بين هذه الأحزاب . .

كل حزب يحول أن يؤيد رأيه . . ويفند رأى الفريق الآخر . . والحقيقة ضائعة . .

* * *

ثم ظهر حزب جديد . .

حزب متواضع لا يتلفع بالأسرار . . ولا يتحدث بالرموز والطلاسم . . ولا يستعين بالألفاظ والاصطلاحات المعقدة . . وإنما يبدأ بتسجيل الملاحظات التى يشاهدها فى الواقع البسيط . . ويبحث عن الحلول فى التجربة الواقعية لا فى دماغه ..

وكان أول سؤال حاول أن يجيب عليـــه . ماذا يفعل الناس الفضلاء فى كل مكان ؟ وكان الجواب محيراً فى البداية ..

أن الرجل الشرقى يغطى رأسه حينما يريد أن يلقى أحدا باحترام .. والغربى يكشفها ...

والمرأة العربية تجد من الفحش أن تكشف وجهها أمام الناس ..

والمرأة الصينية تجد من الفحش أن تكشف قدمها .

وتعدد الزوجات فضيلة فى الحجاز . وجريمة يعاقب عليها بالسجن فى ألمانيا . . .

والتابوت هدية حسنة تدل على حسن الذوق إذا قدمت لشيخ مسن فى الملايو . . وهى غاية فى الوقاحة وسوء الذوق كهدية فى القاهرة . .

والزنا نوع من حسن الأدب بين قبائل الاسكيمو . . إذ يبالغ الزوج فى إكرام ضيفه فيقدم له زوجته . . وهو فى الصعيد عار لا يغسله إلا الدم . . وفى فرنسا مسألة ثانوية يمكن أن يمحوها عتاب رقيق . .

وقتل زنجى فى أمريكا كان إلى عهد قريب احتياطاً ضرورياً لصيانة الجنس ونظافته

أتكون الفضائل والرذائل مجرد تقاليد محلية ؟

أتكون المسألة كلها نسبية تنعدم فيها المقاييس .. فما هو أخلاق فى مكان لا أخلاق فى مكان آخر . بدون قواعد سوى مزاج الناس وتعودهم ؟ . أم أن هناك قانوناً يحكم هذا الاختلاف ..

لقد كانوا يعلمونا فى الحساب أن البسط والمقام يمكن أن يتغيرا وتظل قيمة الكسر الحسابى ثابتة .. فالنصف هو نفسه ٢ : ٤ وهو نفسه ٤ : ٨

أيكون تبدل الأخلاق بين الأمكنة المختلفة والأزمنة المختلفة هو تبدل من هذا النوع ..

أيكون تغيراً يخفى قاعدة ثابته ..

وما هى هذه القاعدة ..

ابليس يلد ذرية

هل نعيش فى عالم كل شىء فيه نسبى حتى الفضائل ؟

أيكون القتل والسرقة والزنا مسائل تتغير فيها الأحكام من زمن إلى زمن ومن مجتمع إلى مجتمع ومن بيئة إلى بيئة ولا قاعدة ثابتة تضبطها .

أتكون المسألة مسألة هوى ومزاج . أم أن هناك مقياساً ؟

لنفكر من جديد :

متى كان تعدد الزوجات فضيلة ؟

لقد كان هذا فى مجتمع بدوى يضرب خيامه فى الصحراء مجتمع فقير قليل العدد . تتحارب فيه القبائل عشرات السنين من أجل بئر أو عين ماء عذبة .. ويهلك فيه من

الرجال أضعاف ما يملك من النساء . .

وفى مثل هذا المجتمع لم يكن زواج الرجل بامرأة واحده ممكنا لأن عدد الرجال لا يكفى . .

وكان مثل هذا النوع من الزواج يحد من قدرة القبيلة على التناسل . .

والتناسل كان سلاحاً يعتمد عليه البدوى ليحارب طبيعة قاسية تحاول قتله .كان سلاحا يقيه الفناء والانقراض .

كان البدوى يحارب السبع ويحارب المطر والسيل ... لا بالبندقية . . ولا بالعمارات الحديثة المبنية بالمسلح وإنما بالذرية الوفيرة . . فلو أكل السبع أحد أولاده . . فهناك عشرة أولاد باقون . .

ولا سبيل الى نسل وفير سوى تعدد الزوجات ولهذا كان تعدد الزوجات فضيلة ، لأنه عمل نافع للحياة . وسبيل الى البقاء . .

هناك قانون إذن . . قانون مستتر يحكم على أفعالنا بالخير والشر . . هو الفائدة والنفع . . فما يفيدنا ويساعدنا على النمو وعلى مواجهة الخطر هو عمل فاضل . . وما يضرنا هو عمل شرير . .

ولو تغيرت ظروف حياتنا بحيث يصبح الزنا هو أنفع العلاقات بين رجالنا ونسائنا لتغير حكمنا على الزنا من تلقاء نفسه وأصبح استحساناً . . ولقلنا عنه أنه خير . .

° ° °

ونحن نسعد ونفرح إذا حصلنا على منفعة ونشقى ونتعذب إذا وقعنا فى ضرر . .

ولهذا كانت الحاسة الحقيقية التى ندرك بها خيرنا من شرنا ليست الضمير . . وإنما سعادتنا وشقاؤنا . .

ان الخير فى منتهاه هو ما يحقق لنا النفع والسعادة . .

والشر هو ما يوقعنا فى الضرر والشقاء . .

وهنا يطل علينا سؤال مستعجل .. هو :

منفعة من .. وسعادة من ؟

ماذا نقصد حينما نقول أن الفضيلة هى تحقيق المنفعة والسعادة ؟

هل نقصد تحقيق هذه المكاسب للفرد أم للجماعة ؟

إننا لا نعيش وحدنا . بل نعيش مع الغير .

وسعادة الواحد ما قد تعنى شقاء الآخر . فماذا نعنى بكلمة منفعة ؟

إننا نعنى منفعة الكل طبعا .. لأن أسلم الطرق إلى نفع الفرد هو الطريق الذى ينفع الكل فى نفس الوقت .. لأنها تكون منفعة خالصة بدون اعتراضات .. منفعة باقية مأمونة .

ونحن حينما نرصف شارعا بالأسفلت نحكم عليه بأنه طريق نافع .. ونحن لا نعنى أنه نافع لقطاع الطرق ..

وإنما نعنى أنه نافع للمجموع كسبيل مطلق من سبل المواصلات تطرقه كل الأقدام ..

وهذا يضع قدما على أول الدرج ..

لقد وجدنا القاعدة ..

إن العمل الفضل هو العمل النافع .. النافع لأكبر عدد من الناس .. السار لأكبر عدد من أفراد المجموعة الإنسانية ..

وهذا يؤدى بنا إلى الجذر الاقتصادى للأخلاق

إن كلمة نفع كلمة اقتصادية .. والاقتصاد مربوط بالسياسة .. والسياسة مربوطة بالتاريخ .. وهذا يجرنا إلى محاولة تطبيق نظريتنا على التاريخ .

* * *

لقد بدأت حياتنا بنظام بدائى مفكك .. هو مجتمع الصيد

القصص .. وهو مجتمع مهدد تنعدم فيه الضمانات ولا تنفع فيه إلا خصلتان .. الوحشية والشراهة ..

كان الصياد الناجح فى ذلك الزمان هو الرجل الوحش الذى يذبح أى شىء ثم يأكله نيئا إلى آخر مضغة فيه .. لأنه لا يدرى متى يعثر على الوجبة الثانية .

ولم يكن فى ذلك المجتمع البدائى نظام للملكية ولا نظام الزواج ، ولهذا لم تكن السرقة ذات معنى ولا الزنا ذا موضوع .. كانت مجرد أفعال لا توصف بالخير ولا بالشر .

وكانت الفضائل هى أن تكون وحشا شرها .

* * *

ثم حدث الانقلاب الأول ..

إكتشفنا الزراعة ..

فتطورت حياتنا واستقرت . وعرفنا الاطمئنان والسلام .. وأصبحت الوداعة مطلوبة أكثر من الوحشية



والزواج مطلوبا أكثر من الزنا لأنه يمنح الفلاح خادمة تخدمه مجانا فى الحقل هى وأولادها ..

وأصبحت العفة ممكنة ومستحبة لأن الزوج ميسور بمجرد البلوغ دون حاجة إلى انتظار شهادة جامعية ووظيفة فكل ما تطلبه الأسرة هو ذراع قوية ومحراث .

وهكذا وجدت الأخلاق المسيحية طريقها . وظهرت فضائل جديدة مثل الوداعة والحب والعفة .. والزواج من إمرأة واحدة والرباط المقدس الذى لا ينفصم بالطلاق .

ومالبث أن حدث الانقلاب الثانى .. وكان انقلابا مهولا .. هو الصناعة ...

لقد اكتشفنا ينابيع جديدة للقوة هى الفحم والحديد والبخار والكهرباء تضاءلت الى جانبها سواقى الحقول وشواديفه ، وفقدت سنابل القمح جاذبيتها .. فهجرنا الريف وتجمعنا فى المدن فى شوارع قذرة ومصانع مظلمة رطبة يملأها

الدخان .. وتفككت الأسرة وذهب كل ولد إلى مصنع يعمل وحده ويكسب وحده .. ووجدت النساء إقبالا على توظيفهن لأنهن أرخص من الرجال ، فتركن البيت . ووجد الأطفال أعمالا مهلكة بأجور أقل من الإثنين . وهكذا بدأت الأسرة تنهار ، وعجل بانهيارها أن الزواج أصبح عسيرا لأن العمل بالمصانع فى حاجة إلى كفاية علمية وتدريب والتعليم فى حاجة إلى نفقات وسنوات طويلة من العمر . فاذا عامر الرجل وتزوج وجد أن زوجته عالة . وأطفاله عالة أكثر لأنهم فى حاجة إلى تعليم . ولن يجنى من وراء تعليمهم شيئاً لأنهم سوف يتفرقون فى الجهات الأربع ويعيش كل منهم وحده .

وكانت الصناعة طوال هذه المحنة تعمل بلا قلب . كانت كالوحش الذى يمضغ ضحاياه فى آلية . همها أن تشترى بالرخيص وتبيع بالغالى ..

وأتلفت فى سبيل ذلك الشىء .

أتلفت الصداقة وحولتها إلى تنافس ثم حولت التنافس
إلى حرب ثم إلى استعمار سافر .

وهدمت الحرب البقية الباقية من الأخلاق . . فقد
عودت الجند الوحشية والإباحية وبخست قيمة الحياة لكثرة
ما أطاحت من رؤوس . . ومهدت لظهور العصابات
والجرائم القائمة على القلق والهستيريا . . وحطمت الإيمان
بالعناية الإلهية . . وانتزعت من الضمير سند العقيدة الدينية
وفي النهاية أدت إلى ظهور جيل مخدوع ألقى بنفسه في أحضان
الاستهتار والفردية والانحلال .

أكان من الممكن والزواج مستحيل . والمثل منهارة
والحرب تدق الباب . . أن تظل العفة المسيحية عـلى
قداستها ؟ . . لا . . لقد كان من الطبيعي أن تصبح العفة مثار
سخرية وأن تتحلل الأسرة ويصبح الاتصال الجنسي قبل
الزواج مألوفا وتحديد النسل ضروريا . واستخدام موانع
الحمل للاستمتاع بدون حمل احتياطا مهذباً .

وماذا كانت الدولة تعمل أثناء هذا التطور الهدام ؟
كانت تساعد على الهدم .

كانت تمتص الأخلاق العائلية وتحول الولاء الأسري إلى
إلى ولاء للحاكم وطاعة لمأمور البوليس وعضو الشيوخ ثم
تعتمد على قوة السلاح لتسكت كل اعتراض

وكانت بعد هذا توجه أجهزة المجتمع لما يخدم مصالح
الأقليات التي تمثلها . . وتشكل له معنوياته على النحو
الذي يفيدها . . .

الدين . . والعرف والتقاليد . . والقـانون . .
والأخلاق . . . كل هذه المعنويات كانت تعاني تأثيرين هائلين
من أسفل ومن أعلى يحاولان تشكيلها .

كانت العوامل الاقتصادية تعمل من أسفل . وعوامل
السلطة السياسية تعمل من أعلى . .

وفي النهاية كانت تخرج من الصراع فلسفات وفضائل
غريبة . كانت فضيلة القوة التي نادى بها نيتشه تجهز لظهور

الفاشية والنازية وتعد الاذهـــان لسياسة الرجل القوى .
والجنس القوى . وفلسفة الحرب والتوسع والعدوان المقنع

وكانت فلسفة الضمير المركب فى الإنسان من قبل
سلطة روحية تبعد الذهن عن التفكير الحر لأنها تقف
عند حدود الأوامر المطلقة والنواهى المطلقة التى يصدرها
الضمير دون أن تجرؤ على الشك فيها ..

كانت هذه الفلسفة اللاهوتية بقية من العهد الاقطاعى
الذى كان يعتمد على أرستقراطية مطلقة فى أحكامه ..
لا تراجع ... ولا تنقض ..

ولكن الصناعة التى أوقعت العالم فى كل هذه الشرور
منحته نعمة واحدة .. هى نعمة العلم والتفكير العلمى
والتجربة الواقعية فى المعمل

وقد بدأ الإنسان يطبق هذه التجربة العملية على المجتمع
فوصل إلى حل اللغز الذى استعصى عليه طوال هذه السنين
وفهم قانون الخير والشر .

فهم أن الخير هو المنفعة للجميع .. وأن الشر هو
الضرر للجميع ..

واكتشف أن إبليس قد ولد ذرية من الأبالسة
هم المستعمرون والسماسرة يعملون كل يوم على أن يكون
الضرر للكل .. والنفع لقلائل يعدون على أصابع اليد
الواحدة ..

° ° °

ولم يكن هذا الإكتشاف جديداً .
كان فى الكتب القديمة .. القديمة جداً .. ومضات من
هذه الحقيقة الكبرى ..

فى إحدى صلوات بوذا يقول المعلم الكبير .
فليفض قلب كل إنسان .
بحب رحيم .
تجاه جميع العالم .
دون سد أو حائل .

- فليعش جميع الأحياء .

الأقوياء منهم والضعفاء .

الكبار منهم والصغار .

الذين يسكنون قريباً .

والذين يسكنون بعيداً .

الذين ولدوا .

والذين سيولدون .

فليعيشوا جميعاً .

دون استثناء .

فى أمن وسلام .

ولتهطل الأمطار فى الوقت المناسب .
ليعم العالم الرخاء .

أكانت هذه الرؤيا الصافية للمعلم الكبير ذات علاقة بديانته .

وهى الديانة الوحيدة بين ديانات الشرق التى خلت كتبها من عقيدة الآخرة .. والحساب .. والعقاب .. وإبليس .. والروح .. والله ..

هل عثر بوذا على هذه الحقيقة لأنه لم يشطح بذهنه فى ظلمة الغيب .

أم أن إبليس كان غائباً حينما إنطلق بوذا يفكر .

إبليس يموت

الطبيعة بلا أخلاق ..

لا تستطيع أن تقول للحجر عيب . . أنت مخطىء لأنك تتدهور من أعلى الجبل إلى الأرض ، ولا تستطيع أن تتهم الماء بالانحطاط .. لأنه ينحدر من أعلى إلى أسفل .. ولا تستطيع تعاقب النمر لأنه اعتدى على الحمل وأكله بدون إنذار ..

أن الطبيعة ملطخة بالدم نابا ومخلبا . والأخلاق شيء ليس فى الطبيعة ولكنه فى الإنسان .. وهى من إنتاج المجتمع الإنسانى واختراعه ..

الأخلاق نشأت وتطورت مع الأدوات التى اخترعها

الانسان البدائى . . مع النبل والمقلاع من أجل تأمين حياته . .

صنع الانسان النبل والمقلاع ليهاجم الأسد وحده . . ولجأ إلى الاخلاق ليهاجم الأسد فى جماعة متعاونة من أصدقائه . .

وكانت الأخلاق فى بدايتها محالفات عقدها الأفراد بينهم وبين بعض لمواجهة عدو مشترك هو الطبيعة . . ثم تطورت هذه المحالفات وأصبحت عادات وعرفا وتقاليدا . ثم تجمدت فى المجتمع الحديث فى شكل أجهزة بوليسية هى سلطات الدين والسياسة والقانون .

وكان هدف هذه الأجهزة هى مساندة الضمير الفردى وتأييده بقوى خارجية حتى يشعر أنه ملزم ليس فقط بحكم ضميره بل بحكم القانون . .

وهذا يدل على تسليمنا بأن ضمائرنا غير رادعة .

وأنها ثانوية . . تقليدية . . وليست أجهزة روحانية أوامرها ونواهيها مطلقة كما تدعى الكتب القديمة . .

والضمير ليس شيئاً مطلقاً بدليل وجود عدة ضمائر مختلفة . . فكل منا له ضميره الذى يختلف عن ضمير الآخر . . وكل منا يخضع فى أفعاله لرقابة داخلية . . ذات لائحة خاصة من صنعه هو . ولا توجد لائحة مطلقة ولا ضمير عام .

ولهذا كانت الفضيلة لا توصف بأنها طاعة الضمير . . لأن الضمير اصطلاح فردى . ولأن هناك ألف ضمير . . وضمير . .

وإنما توصف بأنها استهداف النفع وتحقيقه للإنسانية . . والمساهمة فى تنمية الحياة والوصول إلى السعادة . .

أن كل الطرق الأخلاقية تنتهى فى روما عند السعادة . . غاية الغايات جميعاً . . حتى الأنبياء الذين

سعوا إلى المشانق والمحارق كانوا يطلبون السعادة . .

• • •

كانت سعادتهم فى هذا الطريق الضيق الشائك المحفوف بالعذاب . .

وكلمة تضحية ليست دائما صحيحة فالشهداء العظام والمصلحون لم يكن فى مقدورهم عمــل آخر غير أداء رسالتهم . .

كان تحقيق رسالتهم هو النهاية الوحيدة السعيدة فى نظرهم . . وأى تنازل وأى استسلام . . كان بالنسبة لهم شقاء لا يحتمل . .

والنبى لا يطلب الحق عن تضحية . . ولكن عن إدراك بأن الحق هو الكسب الوحيد الذى يستحق منه العناء . .

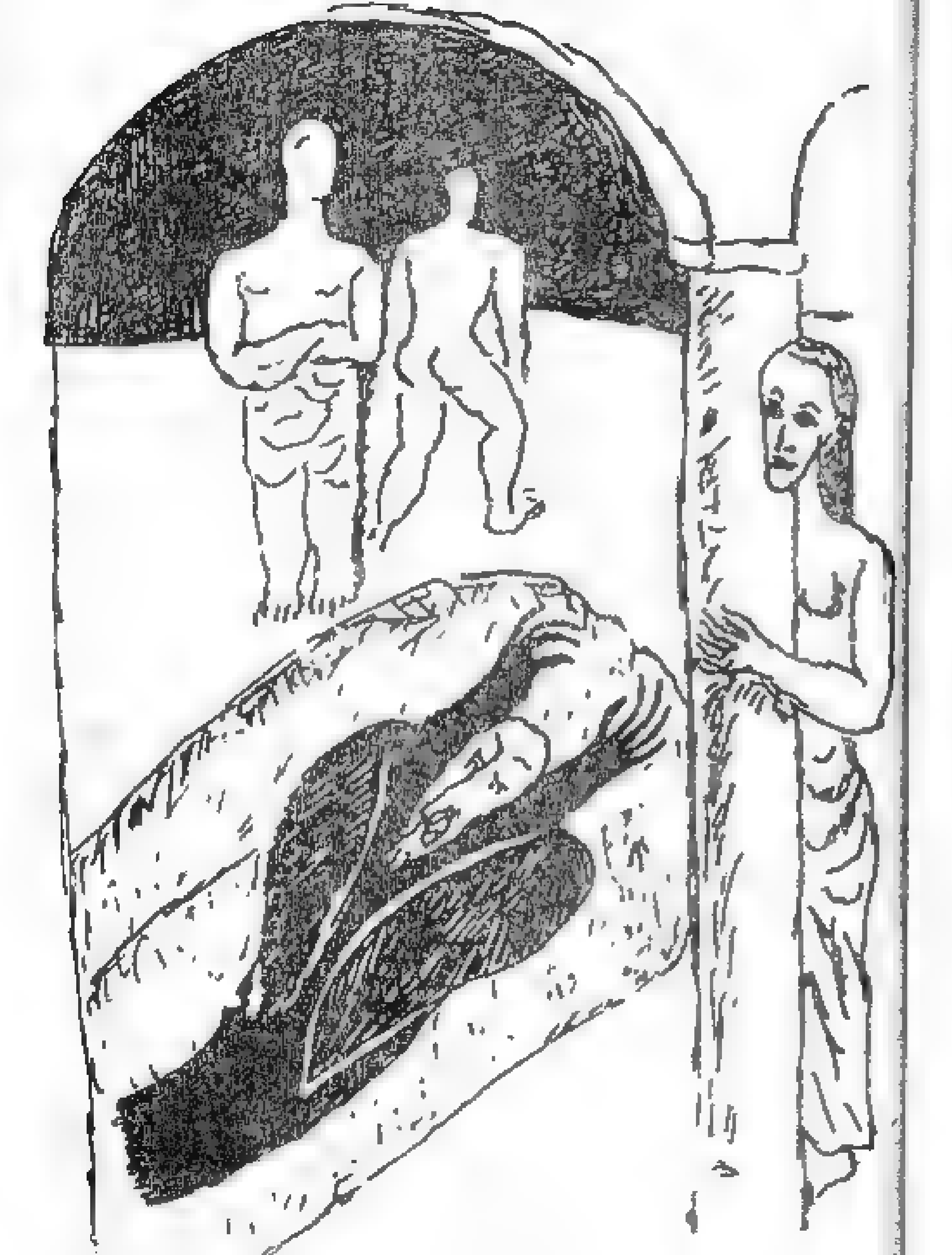
• • •

بهذا يمكن أن نرسم أمامنا لوحة واضحة نضع فيها القيم المختلفة . . كل قيمــة فى مكانها وقد فهمنا أين الخير . . وأين الشر . . وأين الضمير . . وأين إبليس . .

وهذه اللوحة الواضحة لا توجد فى ذهن كل إنسان وإلا لكان إبليس قد مات من زمن طويل .

أن إبليس ما زال يعيش لأن مجتمعنا مضطرب وأذهاننا مشوشة . .

نحن نتعلم فى طفولتنا حكاية إبليس . . ونربطها بما يقوله الأب عن العيب . . وقلة الأدب . . والحرام . . ونتعلم كلمة الضمير . . ونربطها بما يقــوله الأب عن الواجب والأصول والحلال . . فتتربى فينا ملكة عقلية منفصلة هى التى يسميها فرويد الرقيب . . ويتربى فينا صوت داخلى يوجهنا نحو الصواب . . فإذا لم نبلغ النضج الفكرى الضرورى . . ولم نفهم القوى التى تحكمنا فى وضوح . . تحول صوت الرقيب إلى ديكتاتور يطلق



خرافة الأمر المطلق والنهى المطلق .. وأصبح مثل الكرباج يسوطنا من الداخل ..

والمريض بعقدة الشعور بالذنب .. هو نتيجة هـــذه الحالة ..

فالمريض بعقدة الذنب يشعر أنه مطارد بصوت داخلى يصرخ فيه على الدوام . . أنت مخطىء . أنت مذنب . أنت حقير . . يجب أن تدفن نفسك حيا . يجب أن تحرق نفسك بالنار . . يجب أن تقطع ذراعيك لأنهما فعلا هذا الفعل وتفقأ عينيك لأنهما رأيا هذا المنظر ..

والمريض فى غمار هذه المحنة يشعر بكراهية شديدة نحو نفسه .. ويشعر بكراهية شديدة نحو الناس .. وهو يقسو على نفسه ويقسو على الناس . . وإذا كان حاكما أو ملكا . . فإنه يكون ملكا مستبدا طاغية .. ونهاية هذه الحالات هى نوبات هستيرية تلقى بأصحابها فى مستشفى المجاذيب ..

والظاهرة الأخرى من ظواهر التشويش والتخبط تبدو فى علاقة المجتمع بالفرد .. فالمجتمع ينفى هذا الضمير ويحوله إلى سلطات فعلية وسجون ومعتقلات ولوائح بالممنوعات ولوائح أخرى بالأشياء المرغوبة وهو يكافىء أفراده بالميداليات ويعاقبهم بالكرابيج عند اللزوم ..

والفرد أمام هـــذه المجموعة من اللوائح والأوامر والنواهى هو واحد من ثلاثة ..

أما انسان سلبى بلا ارادة وبلا عقل يخضع خضوعا كاملا لهـذا التنظيم . وهو فى هذه الحالة يفقد حياته .. ويتحول من فرد إلى مجرد قطعة مكررة فى آلة .. يعيش حياة عامة دون أن يتفرد بشىء خاص به وهو بهذا يموت .. ويعيش المجتمع حياته بالنيابة عنه . والمجتمع بهذا يفقد شخصا نافعا ..

وإذا كثر الأفراد من هذا النوع تحول المجتمع إلى كتلة غبية جامدة ليس فيها حياة ولا خلق ولا ابداع :

والحالة الثانية هى حالة الفرد الذى يرفض المجتمع ويرفض سلطاته وتقاليده ويدخل قوقعته ويعتزل عن الناس ويردد كلمة روسو فلنعد إلى الغابة .. ويبنى له عالما خاصا به من أحلامه وأوهامه ومثالياته .. وهو بهذا الرفض السلبى يحول المجتمع إلى آلة مفككة مشلولة لا نفع فيها .. مؤلفة من أفراد مفككين .. يعيش كل واحد منهم منعزلا فى عالمه

والحالة الثالثة هى حالة الفرد السليم الواعى الذى يطاوع مجتمعه فى تمرد . ويقبل أوامره ونواهيه بعد إختبار ومراجعة . أنه الفرد الناقد .. ورسالة الحكم الديمقراطى هى حماية هذا الفرد والإكثار من أمثاله . لأنه الفرد الوحيد الذى يضيف شيئا إلى المجتمع بوجوده . الفرد الوحيد الذى يتكلم ويكتب ويعمل ويحتج ويتدخل فى الآلة الكبيرة بالاصلاح والتشحيم بين حين وآخر .

والتربية الخلقية وحدها هى التى تصنع هذا الفرد . انه نتيجة الفهم الواضح لمعنى الواجب ومعنى الفضيلة .. ومعنى الرذيلة ..

هل لى أن أحلم فى نهاية البحث بشىء .

إنى أحلم بنشوء أخلاق جديدة .. أخلاق عالمية .

لا .. لست أحلم . بل أرى هذه الأخلاق فى طريقها إلى التحقيق ..

لقد بدأت القصة بظهور أخلاق فردية تتخذ قاعدتها من مصلحة الفرد .. ثم نشأت شركة إقتصادية جديدة أسمها الأسرة إحتاجت إلى تركيب أخلاقى جديد هو الأخلاق الأسرية .

ثم نشأت الدولة .. وهى مؤسسة إقتصادية كبيرة تضم منافع الأفراد جميعهم .. وضحت الأسرة بمنافعها الخاصة فى سبيل الخيرات الكثيرة التى كسبتها من هذه الشركة الأقتصادية الواسعة .

إن الأسرة لاتستطيع أن تملك وابوراً للإنارة ولاشركة لتكرير المياه ولا مضارب أرز ولا مصانع سكر .. هذا

عدا منافع أخرى عديدة . مثل تنظيم الرى والصرف وحراسة الأمن والإشراف على الصحه والتعليم . كل هذه مكاسب تستطيع أن تحصل عليها الأسرة حينما تنضم إلى مجتمع فى مقابل ضرائب وتضحيات وتعديلات قليلة فى لوائحها الخلقيه .

ولهذا نشأت الدولة .. لأنها أصبحت ضرورة ..

* * *

وقد مر الزمن والدول تتصارع .. ثم نشأت الحاجة إلى وحدة عليا تضم كل الدول ، وولدت عصبة الأمم .. وهيئة الأمم المتحدة ومجلس الامن ..

لكن الضرورة الموجودة فى الافق أقوى من هذه الاتحادات الواهية ..

إن الوحدة العالمية تستطيع أن تحقق أرباحاً هائلة لاتقوى الدول فرادى على تحقيقها ..

ورؤوس الاموال التى كانت تثير الحروب فيما مضى - قد بلغت من إعتماد بعضها على البعض ومن تكاثرها . انها أصبحت تنفر من الحرب وأى حرب ؟ . ان العلم يقول انها حرب إبادة يفنى فيها العامل وصاحب المصنع والسمسار والممول ورأس المال . . ولا يبقى شىء . .

إن صاحب رأس المال الذى ينظر بعين أنانية يرفض الحرب العالمية . .

وحين يشتد الصراع وتصل الازمة إلى قمتها ويصبح مخيراً بين الفناء وبين تدويل مصلحته سوف يدوّل مصلحته.

إن منطق مصلحته نفسها يقول هذا . .

وحينما تصبح كل مصلحه حتى مصلحة الاقليات فى إنشاء الوحدة العالمية وفى تدويل المجتمعات فقد أصبح الوضع يدعو إلى تفاؤل عريض .

إن المصالح الاقتصادية والمنافع البشرية هى جذر كل تطور خلق . .

والاخلاق العالميه فى طريقها إلى الميلاد لسبب بسيط إن الاقتصاد العالمى ولد فعلا . وأصبحت الدول معتمدة على بعضها البعض فى اللقمة وفى الامان . .

وحينما يكمل الجنين الناشىء اشهره التسعة سوف يصبح التعريف البسيط للفضيلة ليس هى مصلحة الدولة ولا مصلحة الاسرة . بل ستكون الفضيلة هى نفع الكل .

وسيكون شعار الجيل القرن الواحد وعشرين ابحث لنفسك عن المنافع من الطريق التى تؤدى إلى نفع الناس معك .. تكن رجلا فاضلا وتكن سعيداً فى نفس الوقت ..

وحينئذ سوف يموت أبليس بالسكتة القلبية وسوف يموت الصوت القبيح الذى ينطلق فى داخلنا ليحرم الأشياء لمجرد أنها محرمات .. ويحلل الأشياء لمجرد أنها حلال . .

ويخضع كل شيء لحكم العلم المحايد حتى العن المحرمات جميعا .. حتى الأشياء الملوثة مثل العملية الجنسية ..

سوف يشملها البحث العلمى ليستخرج منها أكبر قدر من الفائدة واللذة .. ومن يدرى ..

قد يجلس احفاد أحفادنا بعد مائة عام ليشاهدوا فيلما فى السينما الثقافية عن العملية الجنسية وطرقها .. كما نشاهد نحن فيلما عن آداب المائدة .. وكيف يكون أكل اللحم بالشوكة والسكين ..

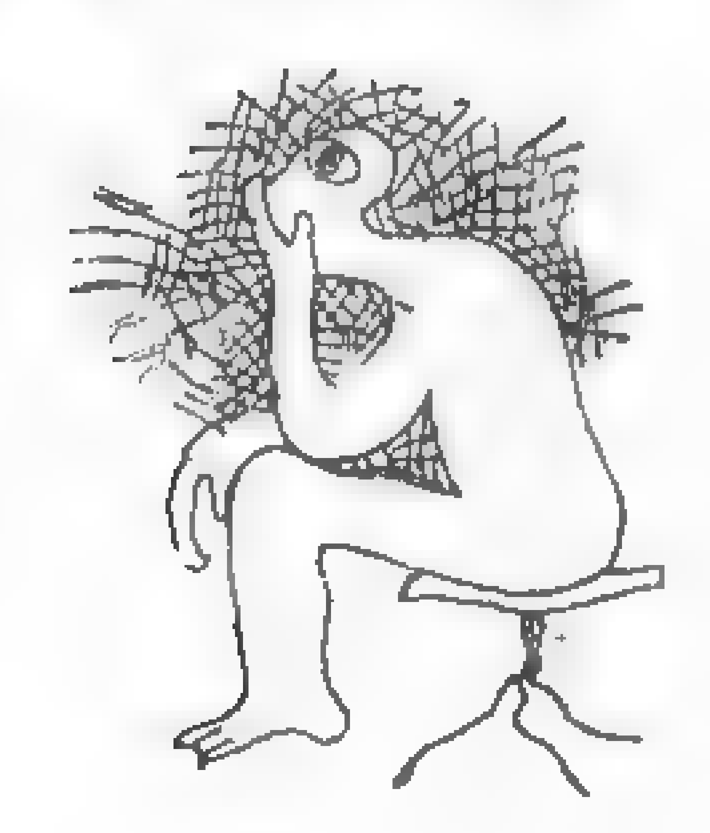
ومن يدرى ..

لو علمنا .. ما سوف يفعله هؤلاء الأحفاد وحكمنا عليهم بضميرنا المحدود .. قد نتنكر أبوتهم ..

ولكن النظرة الواسعة تفتح لنا أفاقا أخرى للحكم .. فالأخلاق تتطور دائما إلى أحسن .. وأحسن ..

والمستقبل خطوات لا نهاية إلى الأمام ..

محنة الفلسفة



كرباج على العقل

أن الحرية لا يصنعها مرسوم يصدره برلمان ..
أنها تصنع فى داخلنا .

أنها فى الطريقة التى تفكر بها . . والأسلوب الذى نشعر به . . والطريقة التى يتفتح بها قلبنا على إحساس جديد ويصحو عقلنا على فكرة مبتدعة . . أن أخطر ما يتهدد حريتنا ليس السجن . . ولكن مشنقة فى داخلنا . . اسمها القلق . .

أنك تحب . . وتقضى الليل تفكر فى المرأة التى تحبها . . وتصارع رغبة تكاد تقفز من فمك . . وتقاوم لهفة تلهب قدميك لتجرى .. وتجرى خلفها . . ولكنك لا تفعل . . لأن هناك رياحاً أخرى تهب فى نفسك فى اتجاه آخر

مضاد .. هى نواهى الأخلاق وأوامر الوالدين . والخوف ..
والخجل . وعدم الثقة . والميراث الشرقى العريض من
الحياء والتقاليد . .

وبين القوتين المتضادتين تقف معلقاً .. وقد شنقت
حريتك وتدلت زرقاء لاهثة الأنفاس من حبل القلق . .

لقد حاولت أن تلق برغبة صادقة إلى الخارج ..
فكانت النتيجة أن ألق بها سجان فى قفص تحت الأرض . .
فى بدروم مظلم داخل نفسك . .

وهكذا كل شىء فى حياتنا . . لا يجد طريقه إلى خارج
نفوسنا سهلا . .

الخوف من الفشل يترصد كل رغبة ليخنقها قبل أن
تولد ..

وعقدة الذنب تجعل من كل عمل نعمله جريمة يؤاخذنا
عليها الله والمجتمع والقوانين والآباء والأجداد .

والكبرياء والكرامة وعزة النفس وكل ما يخف بذواتنا
يصطدم على الدوام بما يفعله الآخرون . . ويؤجج فينا
الخوف . ويدفعنا إلى الهروب والتقوقع فى نفوسنا خوفاً
من الهزيمة والمهانة والمذلة ..

والشك والتردد يمسك بالكلام فى حلوقنا . فلا ننطقه
وإنما نمضغه تحت اضراسنا . . دون أن نخرج له صوتاً .

والغيرة تضيق من آفاقنا وتحجب عنا مئات الفرص
ولا تكشف من دنيانا إلا وجه غريمنا وهو يلوح لنا
بالكسب الرخيص الذى انتزعه منا . فنقضى حياتنا فى
مبارزة حقيرة على قطعة أرض أو امرأة ساقطة .. وتضيع
أعمارنا بما فيها من إمكانيات ..

وكل هذه القيود التى نرسف فيها من الداخل تعوقنا
وتقف فى سبيلنا .. وتنتهى بنا إلى التوقف والشلل ..
وإلى حال تشبه الأمساك .. لا نمارس فيها عملا ولا نستمتع

برغبة ، وتكون النتيجة أن نقف مكتوفين نتفرج على عمرنا الذى يضيع . ونظر بعداء إلى كل لحظة تمضى .. نريد أن نقتلها ..

أن اللحظات تصبح عبثاً .. والحياة تصبح كابوساً .. والقلب يصبح جثة يفوح منها الملل والسأم والضجر .. والصيحة الوحيدة التى تبقى لنا هى الخلاص .. الخلاص من نفوسنا ..

أن القلق حالة من التوتر تنتابنا حينما ننقسم فى داخلنا ونشهد رغباتنا وهى تقتتل وتتصارع ..

أنها اللحظة الأليمة التى تتجلى فيها عدواتنا لأنفسنا .. وهى عداوة مفزعة .. لأن لا شىء فيها يمكن لمسه بالأصبع أو رؤيته رؤية العيان ..

* * *

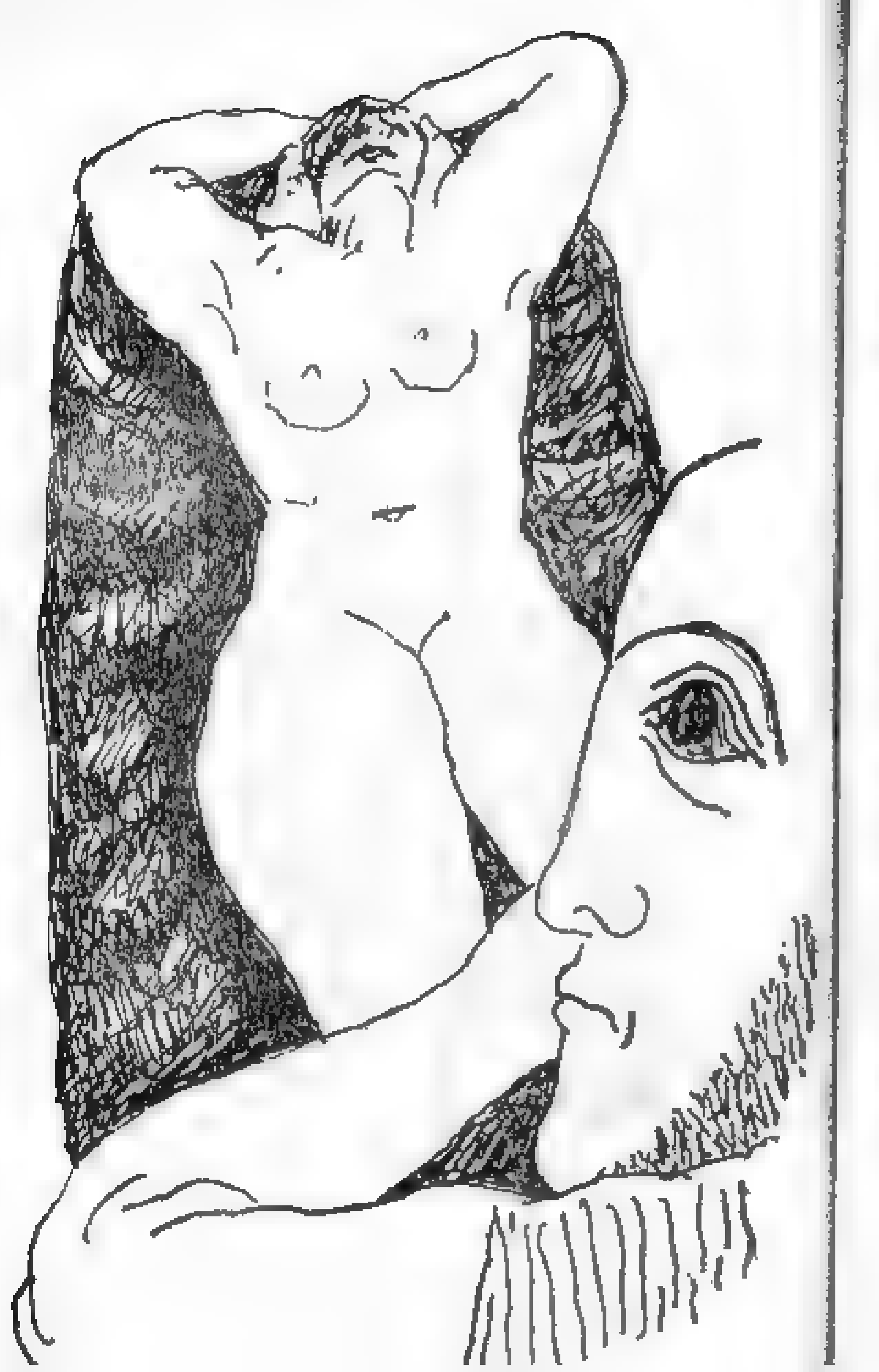
والقلق اليوم ليس كلمة تكتب على الورق .. بل هى

صرخة على كل وجه .. وحالة يعبر عنها المجتمع كله بكل مظاهره ..

فكر فى العادات البسيطة التى تشاهدها كل يوم .. تدخين التبغ والسيجار والبيبة والجوزة .. وشرب المكيفات .. ولعب الطاوله والدومنيو والكوتشينة والشطرنج .. ومضغ اللبان .. وقزقزة اللب .. ورواية النكت القديمة المبتذلة .

أن كل هذه العادات لها معنى واحد .. هو قتل الوقت أنها لعبة الصبر .. التى يتلهى بها الإنسان القلق عن النظر إلى داخل نفسه ..

إن طرقعة القشاط والزهر .. وجنازة القتلى فى لعبة الشطرنج . وحلقات الدخان التى يرسلها المدخن .. ما هى إلا جو مزيف .. وحياة مزيفة .. وانفعالات مزيفة .. يريد أن يحتمى بها من انفعالاته الحقيقية ..



وأحياناً يتحول قتل الوقت إلى قتل حقيق .. فتتطور الكوتشينة إلى قمر والمكيفات إلى مخدرات .. والنكات المبتذلة إلى عادة سرية ، وإسراف جنسى .

أنها القلق نفسه وقد ارتفع إلى مستوى عال من التوتر ..

ماذا يكتب نصف الأطباء للمرضى ؟

أنهم لا يكتبون أدوية .. ولكنهم يكتبون كرابيج للنفوس القلقة المرهقة .. فنصف الروشتات عبارة عن كالسيوم وفيتاميات ومقويات ومسهلات للجنس .. وأقراص لليقظة .. واقراص للشهية... والكلمة التى يرددها الطبيب بعد أن يفحص المريض ولا يجد عنده مرضا .. هى . أنت مصاب بكسل فى الكبد .. أو كسل فى الأمعاء .. أو هبوط عام ..

والأمزجة الجاهزة التى ترد من الخارج قد تحولت الآن إلى أنواع مختلفة من المزة تعرض فيها الشركات فنها

فى صناعة أخلاط من المذاق الشهى والعطور والألوان حتى أصبحت رفوف الأجزخانات شبيهة برفوف البار ..

والادب هو الآخر أصبح صورة من التجربة القلقة بكل مضاعفاتها .. فمعظم الكتاب يكتبون للتسلية وليساعدوا القارىء على النسيان .. حتى على نسيان الكلام الذى يكتبونه .. فكل هدفهم هو قتل الوقت والصحف تطالعنا كل يوم بعناوين تصرخ بالدم والجنس وريبورتاجات من عشرات الأعمدة تروى قصص الانتحار وتصف تفاصيل التمزيق الذى حدث فى قميص النوم .. وعلبة الاقراص التى تمنع الحمل التى وجدها المحقق تحت وسادة الضحية .. الخ .. الخ ..

أما الاغانى فهى تذوب ذلا وعذاباً وبكاء .. وتصرخ بالرغبة وتستجدى الاثارة والتهيج .

بتبكى ياعين على الغايبين .

علشان الشوق اللى فى الورد بحب الورد

ياقلبى يامجروح .

أنا والعذاب وهواك .

آه منك ياجارحنى :

قسوه حبايبى مغلبانى .

ظلموه .

عذبنى وأنا أجرى وراك .

أدور على اللى بايعنى .
أوف .. أوف . يامصبرنى على بلواى .

ياظالمنى ياهاجرنى .

ياطول عذابى .

انها جرعة غير طبيعية من العذاب والتعاسة :

وفى أغان أخرى مثل .

من سحر عيونك ياه . التى تنطقها صباح « من سحر عيونك ياح » . .

وفى منولوج مثل . . من فوق لتحت..وتعالى يالله يالله تعالى يالله يالله : فى غمضة عين . . تتحول الأغانى إلى كرابيج جنسية . .

أما السينما فهى تساهم فى مأساة القلق . . بأفلام الرعب والفزع والجريمة . .

أفلام داركولا وفرنكشتين . . وحلقات الشيطان . . وأفلام القتل واللصوصية والقرصنة ... وإخراج هتشكوك الذى قلب كل شىء إلى فزع وحول قصص الحب العادية إلى قصص فرنكشتينية يقف لها شعر الرأس . .

واللقطات الطويلة للقبل التى تستغرق المدى الذى تستغرقه عملية جنسية بحركاتها ولهثاتها :

والمسرح هو الآخر تحول ثلاثة أرباعه إلى كباريه

يعرض لوحات عارية ونفوسا عارية ونـكات بذيئة . .

والإذاعة راحت تهز أعصابنا كل ساعة بسلسلة القط الأسود . . والشبح . . و ليلة رهيبة . .

إن الفن يعكس الهستيريا الاجتماعية ويشعلها ويؤكد حالات القلق التى نعانيها ويزيد عليها بحصار خارجى من الصور والمؤثرات والمهيجات تطيح بالبقية الباقية من النفوس السليمة . وتوقع بها هى الأخرى فى مشانق القلق .

ان المحروم يزداد شعورا بالحرمان بعد ارتياد السينما والجائع يزداد جوعاً . . والشكاك يزداد شكا . والمتردد يزداد ترددا . والسليم النفس يحس أنه غريب غير طبيعى .

إن الفن يضع مزيداً من الأثقال على المتناقضات فتزداد تناقضاً . ويزداد التوتر بينها حدة .

والنتيجة إننا تعساء وأننا نفقد حريتنا . ونفقد إختيارنا ونضيع فى الدوامة الداخلية فى نفوسنا ، ونفقد الإتصال

بالدنيا . ونعيش فى سجن حقيق ونحن أحرار لم يصدر علينا حكم .

• • •

اذهب إلى مقهى واجلس وصفق طالبا كوبا من الشاى وراقب الوجوه حولك . ان ظاهرها ينبىء بالهدوء والتراخى والنوم .. ولكنه نوم كاذب فلو كان نوما حقيقياً لنامه أصحابه فى منازلهم أو فى البالكون أو على فوتيل مريح .

ولكن هذه التجمعات من الآدميين يلوذ كل واحد منهم بالآخر ويتوكأ عليه ويبحث عن مكان تحت ابطه .. تدل على شىء ..

ولو لبثت قليلا فى مكانك سوف يمر عليك بائع متجول يدس فى يدك إعلاناً .. يقرؤه بصوت خافت .. :

« حبوب الأزواج .. مركبة من العنبر الحر والمانستر

الخام وخلاصة الديوك وحليل التمساح وجملة أعشاب نباتية أخرى لا يمكن لأحد غيرنا الحصول عليها ..

« فائدة القرص الواحد تساوى مبلغ لا يقدر لأنه يغذى الدم ويمنع ارتخاء الأعصاب ويعطى الجسم قوة ونشاطاً لم يسبق له مثيل ..

جرب هذه الحبوب وسوف تشعر بلذة لا مزيد عليها

وسوف يختفى الرجل لحظه ثم يعود وفى يده إعلان آخر عن كتاب اسمه اللذة الملعونة .. ويهمس فى أذنك

الثقافة الجنسية .. علاقة المرأة بالرجل .. خطيئة الحب الاستمتاع .. فتاة تفرط فى شرفها .. إعتراف مستهترة كيف تخضع حبيبتك .. الفاتنات العاريات .. الاستسلام الممتع فى العلاقات الزوجية .. لذة الرجل والمرأة .. الحيل الشيطانية مع المرأة .. الفتنة الطاغيه .. الرغبة الجنسية . العادة السريه

الفتاة اللعوب .. اعترافات مومس .. كيف تصبح ذئباً وتجعل امرأتك دجاجة ..

كتاب يعلمك لطرق التى تخضع بها المرأة جسداً وروحاً :
إن الرجل يوزع كرابيج على الخيول المرهقة حولك :
إن أعجب نتيجة للإثارة الجنسية ابتداء من الكتب والأقراص والأفلام والأغانى . إنها لا تقوى الرجل على أداء مهمته الجنسية .. ولكن على العكس تؤدى إلى العجز والارتخاء فى سن مبكرة والسبب ليس المرض أو الضعف ولكن القلق ..

إن الإثارة الدائمة تضع المسألة الجنسية فى مركز الاهتمام بالنسبة للرجل والمرأة .. وفرط الاهتمام يحول لحظة الجنس اللطيفة إلى لحظة امتحان رهيبة ترتجف أمامها أعصاب الرجل . وتكون النتيجة هى الخوف والشلل والارتخاء ..

وهكذا تؤدى الكرابيج المنبهة إلى عكس نتائجها .. وتزيد المشكلة حدة .

ما هى الجذور الحقيقية للقلق فى مجتمعنا ؟

وما هى الميكانيكية التى يحدث بها القلق فى داخل نفوسنا ؟

وكيف نقضى عليه ونقتلعه من أساسه . ؟

إن الرقابة على الفنون لا تجدى .. لأن الفنون تعكس حقيقة واقعه .. فالمجتمع متوتر فعلا .. ونفوسنا مشدودة الحبال .. وحياتنا ذات أنغام عالية ..

إن المشكلة أعمق من وضع عسكرى على باب كل مؤلف ..

إن معنى هذا أن نهرب من خوف باستخدام خوف آخر . معناها أن نرفع القلق إلى مستوى حكومى بينما المشكلة باقية فى الشارع وفى البيت .

لا مفر إذن من طرق البيت من بابه .

لا مفر من مواجهة الداء فى وكره .

إن الصراع يجرى فى أعماق قلبنا وعلينا أن نفتح باب قلبنا على مصراعيه ونفتش فى أرجائه .. لنعرف كيف نحب وكيف نكره .. وكيف نثور .. وكيف نتألم .. وكيف نخاف .. وكيف نرقص على حبال هذه المشاعر كلها ..

علينا أن نفك زنبرك دماغنا لنعرف كيف نملؤه ونفك تروس عواطفنا لنعرف كيف تتلاءم وكيف تركب بعضها على بعض ..

علينا أن ننزل إلى غرفة الآلات لنعرف كيف تدور هذه الماكينة التى أسمها النفس .. وكيف تعطب .. وكيف يصيبها القلق وكيف يكون إصلاحها..

معركة فى سرداب مظلم

الأرض التى نعيش عليها واسعة والخير كثير والعمر طويل . . ومع ذلك لحياتنا سلسلة من المشاكل . .

ما السبب ؟

السبب أن كل هذا لا يعنينا . .

أن ما يعنينا فقط هو رغبتنا . . ورغبتنا مثل النافذة الضيقة تطل دائماً على ما يملكه الناس . . وتتشوف دائماً إلى أشياء ليست فى حوزتنا . . ولا فى إمكاننا . .

أن كل ما فى أيدينا يفقد سحره . . ولا يسيل لعابنا إلا على أشياء لا نملكها

أن رغبتنا هى التى تصنع المشكلة وتخلق تعارضا بين ما نريده وبين ما هو موجود . .

أنها هى التى تحفر الخندق الواسع بين الحلم والحقيقة . . هى التى تلح على الواقع طالبة تغييره بواقع آخر فى خيالنا . .

وهى لا تفهم . . ولا تناقش . . وإنما تلح وتلح . . ولا تتعب . . ولا تقبل التعقل . .

والعقل . . أمام نيران الرغبة التى تحرقه . لا يجد مفراً من مواجهة الواقع وتدبر الوسائل لتغييره وتكييفه ليصبح مرغوباً . . وهو يحتاج لوقت . . والرغبة تصرخ وتريد كل شىء فى الحال . . . والواقع جامد ولا يطاوع التغيير بسرعة والإمكانيات محدودة والحرية محدودة . والزمان والمكان والظروف والبيئة والناس قيود . . تضيف إلى كاهلنا أثقالا وتجعلنا قليلى الحيلة أمام رغباتنا .

أننا نصطدم فى كل لحظة بما نرغب وهذا هو سر الاشكال فى الحياة .

وهذا الصدام هو نواة القلق .. لأن معناه أن هناك شيئاً ما ينقصنا . . وهذا الشىء غير موجود .. وقد لا نستطيع إيجاده ..

وهذا يضعنا أمام واحد من حلين .. أما أن نتنازل عن رغباتنا فنحرم من شىء نحبه .. وهذه نهاية مؤلمة وإما أن نتنازل عن واقعنا فننتحر أو نجن .. وهذه نهاية أكثر إيلاما .

ومن هنا ينبت الخوف والتوتر والتناقض .. والألم ..

ومن هنا ينبع الاشكال .. ومن هنا تصبح حياتنا سلسلة من القضايا . . وسلسلة من المآزق . .

* * *

أن مبررات القلق موجودة إذن عند كل إنسان .. ومع ذلك لسنا كلنا قلقين ..

ما السبب ؟

السبب أن عقولنا لها طريقة سحرية تعالج بها هذا الصدام .. هـــذه الطريقة هى أن تتكيف وتتلاءم وتوفق بين رغباتنا وواقعنا .. وتقوم بالترضية وتهون من الخسائر بإقناعنا بأنها ضرورية ولابد منها . وبهذا تتساقط المشاكل الواحدة بعد الأخرى ..

أن الرجل الفقير قد يحلم بالسكن فى فيلا واقتناء عربة والزواج من أميرة .. ولكنه مع هــذا حينما يصطدم بالواقع ويحسب الحسبة كلها فى عقله لا يجد غضاضة فى التنازل عن هذه الطلبات ويكتفى بغرفة على السطح وجلباب واحد لا غيره .

لقد تكيف على حسب دخله ..

ونحن حينما نرفع درجة حرارة بيوتنا فى الشتاء بأن نضع فيها مدفأة وحينما نخفض درجة حرارة جسمنا

فى الصيف بأن نعرق .. تتكيف نحن أيضاً لننسجم مع الواقع مثل هذا الرجل ..

ولكن التكيف أحياناً يتعطل ..

هناك لذات حادة عميقة وآلام مرهقة يقف أمامها العقل مكتوف اليدين .. ويتعطل جهازه كله ..

الزوج الذى يحب زوجته ويعبدها ثم يفقدها فى لحظة بأن يأخذها الموت من بين ذراعيه .. يواجه رغبة مستحيلة فى بعثها ..

أنه يحبها ويريدها .. وهى فى نفس الوقت ميتة ..

أنها ميتة فى الحقيقة . حية فى ذهنه وهو يحاول أن يتكيف مع الوضع الجديد بأن ينساها ويبدأ علاقات أخرى بنساء أخريات ويتزوج زواجا ثانيا . . ولكنه عاجز عن تجاوز محنته ..

أن اللذات القديمة تلتصق به كأنها الغراء فيتوقف عند

لوجه زوجته ويظل مسترخيا فى أحضانها ..

أنه يعيش فى التجارب الجديدة ولكنه لا يمتزج بها ..

أنه منفصل بوجدانه عن كل الأحداث التى تتلاحق حوله مثل نقطه الزيت تعوم فى الماء ولا تبتل ..

لقد تعطل جهاز التكييف فى ذهنه فعجز عن قبول فكرة الموت . ومضى يعيش فى المستحيل كأنه ممكن ..

لقد سقطت زوجته فى براثن الموت وسقط هو فى براثن القلق . وكلاهما أصبح ميتا على طريقته ..

والسر فى تعطل جهاز التكييف هو تلك اللذة الحادة التى لصقت عواطفه بالماضى .. كأنها صمغ . فافتقدت عواطفه صفة الحرية والتجدد والتفاعل مع الحاضر .. فهو يتكلم ويتحرك فى آلية وروحه غائبة تحوم حول شبح وهو يغذى هذا الشبح بتصوراته وانفعالاته فيكسوه باللحم ويبعث فيه النبض . ولكن تصوراته مهما بلغت

من العمق لا تبعث الميت حيا . أنها على العكس تزيد حبه وتزيد عجزه فى نفس الوقت .. فيزداد توترا وتمزقا وتناقضا .. ويتحول قلقه إلى ألم عضوى وإلى سلسلة من الأعراض المرضية ... مثل هذا الرجل قد يذهب إلى الطبيب ليشكو الصداع المزمن والقىء وخفقان القلب والهبوط العام والأرق وضعف الشهية . فيكشف عليه الطبيب .. ويضع السماعة على قلبه وصدره .. ولا يجد شيئا .. فيقول له .. أنت موهوم .. وما تحس به لا أساس له من الصحة .. والطبيب مخطىء فى حكمه .. والأطباء يخطئون دائما حينما ينكرون المرض لأنه غير مصحوب بعرض جسمانى ..

أن الجسم والنفس شىء واحد ..

ونحن حينما نخاف ترتجف أجسادنا من الرأس إلى القدم وحينما نقلق ترتجف وظائفنا بنفس الطريقة .. ويرتجف هضمنا وتنفسنا ونبضنا وتفكيرنا .. ونقع ضحية أمراض غامضة لا تفسير لها فى عالم الميكروبات .

والدكتور جيلسى يروى قصة مريضة جاءته بالتهاب مزمن فى ذراعها .. وكشف التحليل النفسى عن وجود صراع فى عواطفها سببه كراهيتها لأمها ..

أن أمها تعاملها كخادمة وتستغلها إلى أحقر الحدود .. وهى تكرهها فى عقلها الباطن وأن كانت ترفض هذه الفكره فى عقلها الواعى لأنها متدينة .

وتكون النتيجة أن تشعر شعورا غامضا بالذنب وتحاول أن توقع على نفسها العقاب .. فتهرش فى ذراعها دون أن تدرى حتى تجرحه .. فإذا التأم أخذت تهرشه من جديد ويؤدى تكرار الهرش إلى التهاب مزمن لا ينفع فيه دواء .. لأن الأكلان ليس أكلانا عضويا .. ولكنه أكلان نفسانى ..

ومثل هذه المريضة لا تشفيها الا عملية جراحية فى عواطفها تخلصها من الكراهية .. وتحقق لها نوعا من التلاؤم والتكيف مع حياتها المنزلية ..

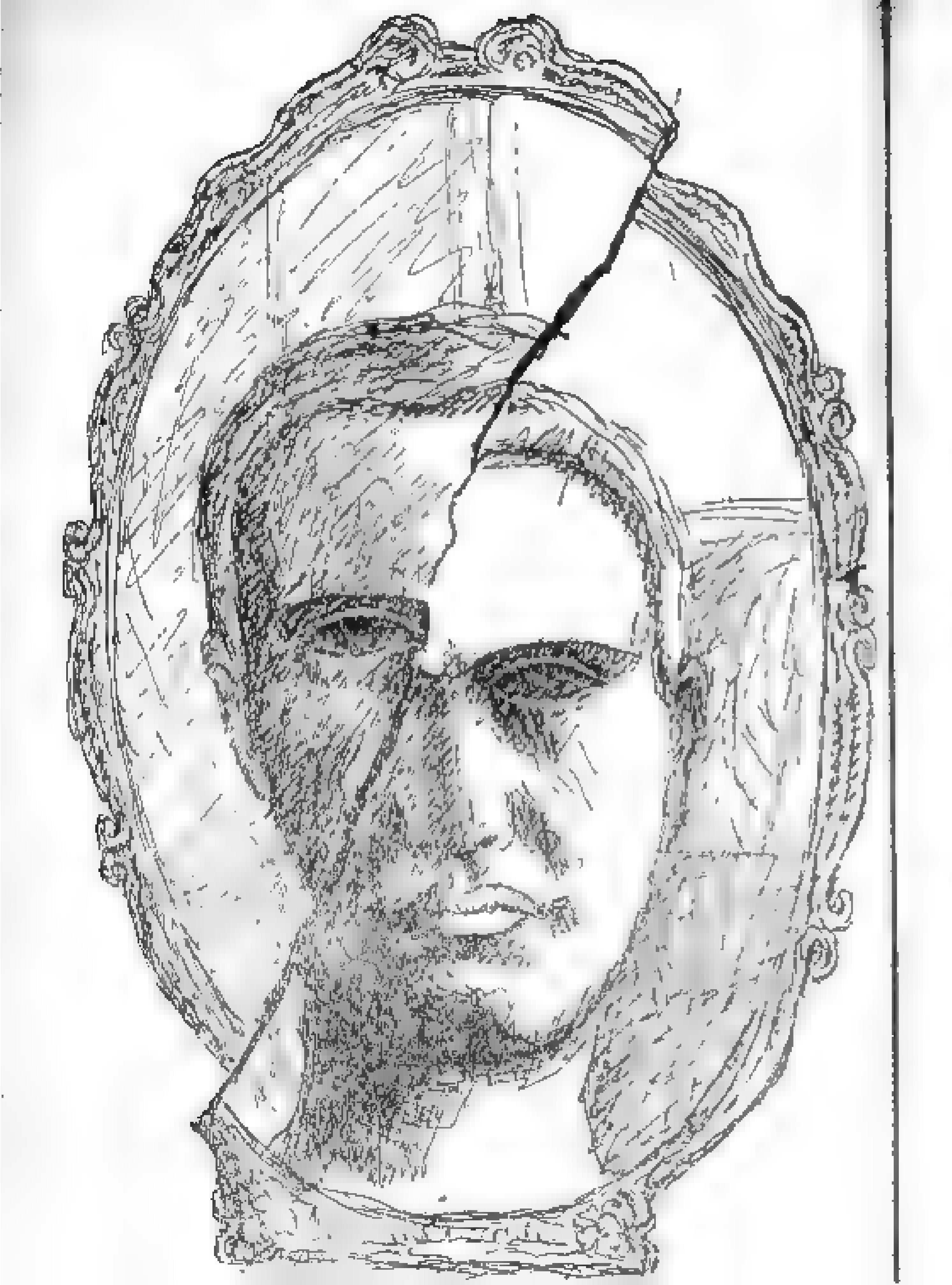
أن أخطر ما فى القلق انه مبارزة خفية غير منظورة يتبارز فيها خصوم لا نراهم فى سرداب مظلم ..

أننا نسمع صلصلة السلاح .. ونشعر بوخزات السيوف فى قلوبنا . ولكننا لا نرى فى وضوح العواطف التى تتبارز فى داخلنا ..

وقد يكون سبب القلق هو حرماننا من الحب فى فترة الطفولة .. حينما كنا نتسلق على صدور آبائنا فيلقون بنا بعيدا فى ضيق وملل ..

وقد يبدأ الصراع من تلك السن البعيدة فنقع فى محنة عاطفية بين حبنا لأنفسنا وحبنا للتدليل والحنان .. وبين حبنا لآبائنا . ويؤدى بنا الصراع إلى العزلة والشعور بالنقص ..

وقد نعيش بعد هذا وفى ذهننا فكرة واحدة متسلطة عليه .. هى الانتقام من المجتمع كله ..



أن القلق إحساس مؤلم . . والنفس تتحايل لتهرب منه بأى وسيلة . .

والجريمة والجنون والإنتحار والإنهيار العصبى سبل يائسة تلجأ لها نفوسنا لتتخلص من هذا الشد والجذب والتمزيق والتسلخ الذى يجرى فى . داخلها . .

حينما تشاهد طفلا يحطم لعبة ويفقأ عينيها . . فهى غالباً ليست لعبة فى نظره . . وهو لا يحطمها بهذا الغل لأنها لعبة . . وإنما لأنها رمز لشخص فى ذهنه . . ربما لأبيه الذى ضربه وحرمه من حضن أمه . . وربما لأخيه الذى تحبه العائلة وتفضله عليه . .

إن قتل اللعبة هو الحل الوسط الذى لجأت إليه الإنفعالات المحبوسة لتعبر عن نفسها . .

ونحن مثل هذا الطفل نعانى مئات من الانفعالات المحبوسة لا نستطيع أن نعلنها لأن الواقع لا يحتملها . .

وبعض هذه الإنفعالات مجهولة بالنسبة لنا .. مدفونة تحت سطح الوعى .. لانحس بها وإنما نشعر بصراعها فقط . نحس بحرارتها ونرى دخانها ونشم شياطها وهى تكوى أعصابنا ، ولكننا لا نراها ولا ندركها .. وهذه أخطر أنواع الانفعالات .. لأنها مكروبات غير مرئية

إنها كالأقدار تهبط علينا من داخلنا فلا نستطيع ردها وإنما كل ما نستطيعه هو أن نعانى ونتعذب ونتألم فقط ..

* * *

إن سر القلق هو الإحساس بالإستحالة .. قد تكون الإستحالة سببها الخوف أو عدم الثقة أو عدم الفهم أو مركب النقص .. وقد يكون المستحيل ممكناً فى الحقيقة ..

.. ولكن هذا لا يهم .. فالمهم كيف ينظر الإنسان القلق لمشكلته من داخل ظروفه وإمكانياته .

إنه يحس بالرغبة ويدرك إستحالتها .. وهو مع هذا

لا يستطيع أن يسلم بالهزيمة .. ولا يستطيع فى نفس الوقت أن يحوز رغبته ويحققها .. إن كل ما يستطيعه هو أن يعيش فى حالة شد وجذب ..

أنها حالة تشبه مسمار البرشام تدق صاحبها فى الحائط وتقيد حريته وتعطل ذهنه وتشل طاقاته وتربطه بلحظة حادة ربما كانت لحظة ألم أو لحظة لذة أو لحظة حب أو لحظة كراهية .

وهو لا يستطيع الفكاك منها .. فإذا تجاوزها تجاوزها بجسده فقط .

فهو يذهب فى رحلة بالقطار من القاهرة إلى الشلال .. ويشاهد مئات القرى والبلاد ويعيش فى بانوراما متجددة .. ولكن فكره يظل مع هذا واقفاً على محطة واحدة لايبرحها .. هى مشكلته.

لقد فقد القدرة على التعامل بقلبه .. وأصبح يتعامل

مع الناس بلسانه .. وفقدت حياته جوهريتها .. وأصبحت سطحية خاليه من الحرارة والاصالة ..

وهو على سبيل الهرب من هذا الشلل قد يخلق حالات من الشعور لاأصل لها .. قد يبكى على حب جديد لايشعر به .. وقد يضحك على نكتة لا يفهمها .. وقد يتورط فى زواج لا يرغبه .. وقد يلق بنفسه فى مغامرة لا هدف لها البته ..

وهو بهذه الوسيلة يزيد مشكلته تعقيدا لأنه يجعل الكذبة كذبتين .. ويصنع للسجن الذى يرسف فيه حريته سورا آخر .. ويضرب حوله نطاقا اضافيا من الأسلاك الشائكة .. ويمعن فى الابتعاد عن نفسه الحقيقية .

° ° °

كيف يكون الخلاص من هذا التيه اللعين الذى يفوق

ظلامه ظلام الباستيل كيف نحطم أسوار سجوننا ونخرج إلى الهواء الطلق ..

كيف نتخلص من لذة آسرة لنذوق من جديد لذة آسره ثانية بنفس العمق وبنفس الحرارة .

كيف نتخلص من الحب الفاشل لنعيش حبا ناجحا ونتمتع به ملء قلوبنا .

كيف نهزم الخوف والتردد ونكسب المرونة التى نتكيف بها مع الظروف المتغيرة حولنا .

كيف ندرك العوامل المجهولة التى تقرر مصائرنا .. ونكتشف عواطفنا من ينابيعها إلى مصبها .. ونقيم السد العالى فى مجراها ونتحكم فى تيارها فلا يجرفنا .

وفى كلمة واحـــدة .. كيف نصبح سادة أنفسنا .

والمجتمع مسئول أحياناً والفرد مسئول فى أحيان أخرى .

* * *

أن المجتمع شركة واسعة وظيفتها إفساح الفرص والإمكانيات للأفراد ..

وحسب النظم القائم تكون هذه الإمكانيات كثيرة أو قليلة ... وتكون حرة أو محتكرة ..

إذا كان النظام يعطى الفرد الواحد حقاً فى امتلاك الأرض وأدوات الإنتــاج بدون حدود .. ويبيح الاسترقاق .. فان معنى هذا أنه يقطع الطرق على نمو كل برعم جديد .. معناه أن المواليد الجــدد سوف يفتحون أعينهم ليجدوا كل شىء مملوكا لغيرهم .. الأرض والمنشآت التى عليها .. أما هم فلا يملكون سوى أذرعهم .. لا يملكون سوى حرية التعب ..

أن طريقهم مسدود .. وإمكانياتهم معدومة . .

ثغرة فى الجدار

الفقر والمرض والفشل والافلاس والجنون والموت كل هذه العقبات هى مصادر القلق لأنها السدود التى تقف بيننا وبين رغباتنا . .

أنها هى التى تجعل لحظاتنا مستحيلة ... أنها الجدران العالية التى نصطدم بها ونرتد عنها وعلى رأسنا جراح يسيل منها الدم ..

أننا نريد ولا نستطيع .. لأننا فقــراء مرضى فاشلون . .

نريد ولكننا نخاف لأن الموت يهددنا

نريد ولكننا نحجم لأننا لا نملك هذا الشىء أو ذاك

وفرصهم لا وجود لها .. والاشتباك بالأيدى والصراع قضاء محتوم عليهم .. والقلق مولود فى المهد ومكتوب عليهم حتى اللحد ..

أن كل شيء أمامهم مرهق ومستحيل .. الخبز والمعرفة والدواء والجنس .. حتى الحب مستحيل .. لأن التعاون غير ممكن .. والتطور غير ممكن الا عن طريق اكتساح الآخرين ..

أن العدوان فى مثل هذا النظام ضرورة وحينما يصبح العدوان ضرورة .. والحب استحالة .. يكون القلق هو الضريبة الأولى التى يدفعها الإنسان ليصل .. لأن عليه أن يكذب وينافق ويمثل ويعيش فى صورة غير صورته الحقيقية ليبلغ مطالبه .. عليه أن يتناقض مع نفسه .. وهذا هو القلق ..

وفى مجتمع متخلف رجعى يؤمن بالخرافات ويرسف

فى التقاليد ويحجب المـــرأة فى عباءة مغلقة ذات ثقبين .. ويحجب الرجل فى سجن من المحرمات والممنوعات .. يكون الحب مشقة .. والزواج المبنى على اختيار حر سراب لا يمكن تحقيقه .. وتكون الأسر وحدات تخلقها الصدفة .. وتكون العلاقة الزوجية شيء كالدعارة تمنح المرأة فيها جسدها لرجل لا تحبه مقابل ثلاثة وجبات يومية .. ومصروف يد بضعة جنيهات فى الشهر ..

وفى كل هذه النماذج من المجتمعات يكون القلق مولوداً طبيعياً له أسبابه الموضوعية فى الخارج .. فى البيت والشارع والسوق .. لأن المجتمع فى هذه الحالات يمثل صعوبة .. يمثل مقاومة للنمو والتطور .. لا تسهيلا للحياة .. وإفساحا للقوى الوليدة لتورق وتزدهر ..

وفى هذه الحالات يكون العلاج واضحاً .. أن يتطور المجتمع ويهدم كل السدود التى تقوم فى قوانينه .. فيقضى على الملكية المطلقة ويجعل لها حدوداً .. ويقضى على احتكار أدوات الإنتاج .. ويمنـــع الاسترقاق

والاستعباد .. ويبيح حرية الرأى .. ويفسح الطريق للمرأة لتتعلم وتعمل إلى جانب الرجل .. ويحقق اختلاطا نافعاً بين الجنسين .. ويقيم حباً حقيقياً وزواجا حقيقيا .. ويقضى على الخرافة والتقاليد البالية والجمود .. ويجعل كلمة .. لا .. ممكنة فى كل وقت وكل ظرف .. ويحمى الطفولة بتحقيق الرعاية الطبية وتوفير الدواء والاشراف الصحى .. ويجعل الشفاء ممكنا .. والضمان متوفراً للعجزة وأصحاب العاهات .. والعمل ممكنا للأيدى العاطلة .. والعلم حقاً مباحاً لكل إنسان ..

وهذه الخصائص كلها موجودة فى المجتمع اشتراكى .. ومعنى هذا أن علينا أن نتطور نحو الاشتراكية .. ونهئ مستقبلنا .. ونعد أنفسنا وعقولنا شيئا .. وبالتدريج .. لقبول الفكرة الاشتراكية ..

° ° °

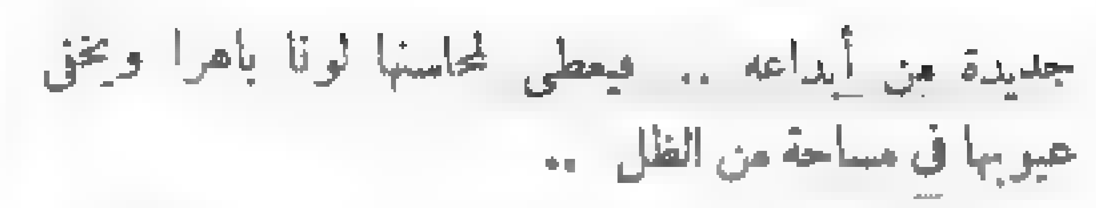
وتبقى بعد هذا .. القلعة الأخرى التى ينمو فى داخلها القلق .. وهى تساوى فى الأهمية قلعة المجتمع .. وتعوقها هذه القلعة هى الفرد ..

أن مسببات القلق تأتى من الخارج كما تأتى من الداخل .. والمسببات الداخلية أهم من المسببات الخارجية لأنها خفية غير منظورة .

إن الانسان القلق يعانى رغبة لا يستطيع تحقيقها .. وهو لا يملك التكيف مع واقعه ولا يملك فهم هذا الواقع ، ولا تبين امكانياته : ولا يملك حتى فهم نفسه ..

أنه يريد .. ولكنه لا يفهم ماذا يريد بالضبط ..

وهو يغذى هذا النقص فى وعيه بالتصورات .. وإذا كانت مشكلته هى امرأة يحبها .. فانه يضع صورتها فى اطار من الزخارف والخيالات .. وقد يرسم لها صورة



جديدة من أبداعه .. فيعطى لمحاسنها لونا باهرا ويخفى عيوبها في مساحة من الظل ..

وهو يتذكر كل كلمة قالتها .. ويعطى لكل همسه معنى لم تقصده . ولم يدر بخلدها بالمرة ..

وتكون نتيجة هذه التطورات أن لذاته تكتسب أعماقا غير حقيقية . وتبلغ درجة من الكمال الوهمى تغريه بالالتصاق بها . فيتجمد عندها . ويتحول بالتدريج إلى الأنسان الذى وصفناه فى المقال السابق . . الانسان المدقوق فى الحائط بمسمار برشام . . مدقوق من قلبه . . الانسان الذى يتعامل مع الناس بلسانه وجسده فقط .. ويعيش بسطح وجوده .. ويفقد جوهريته واصالته .

ما معنى هذا ؟

أن معناه أن إرادة الإنسان القلق تساهم فى خلق مشكلته ..

أنه معذب .. ولكن جزء من عذابه إرادى .. هو الذى جلبه لنفسه بإرادته .. وبتصوراته ..

وهنا تبدو الثغرة الحقيقية فى جدار السجن ..

إن السجين يشكو ولكن مفتاح السجن فى جيبه .. هو الذى أدخل نفسه وأغلق خلفه الباب .. فى إمكانه أن يتحرر ..

فى إمكانه أن يقطع حلقة التصورات المفرغة التى يدور فيها وأن يمحو الألوان والظلال من مشكلته ويتركها عارية على الخطوط .. وبهذا يذيب الغراء الذى يلصقها بوجدانه ..

ليس هذا فقط .. وإنما هو يستطيع أن يقفز من حيز الفكر إلى حيز الفعل .. ويقوم بخطوة إيجابية .. وينزل ميدان تجربة جديدة ..

أننا لا نتعلم السباحة طالما إننا واقفون على الشاطىء ..

نفكر فى برودة الماء وعمق البحر .. ونقدم رجلا ونؤخر أخرى.

لن نتعلم إلا بقفزة واحدة تلقينا فى وسط الماء وسوف نحس ببرودة الماء تلسعنا ككرباج فى البداية .. ولكننا ما نلبث حتى نتعود ويتحول الشعور بالبرد إلى شعور بالدفء .. والشعور بالتهيب إلى شعور بالاقدام .. ونبدأ فى تحريك أطرافنا .. وهكذا نتعلم .. ثم نسبح .. ونقف .. ونمشى .. فى الماء كأنه أرض مرصوفة ..

إن الإنسان القلق فى حاجة إلى ثلاث مراحل ليفلت من قلقه ..

أن يفهم نفسه ويكتشف قدراته ويزيح النقاب عن رغبته الحقيقية ومداها ومنبعها .. ويفهم واقعه وإمكانياته.

أن يقطع حبل التصورات والخيالات التى تغذى قلقه .. وبهذا يخلع نفسه من الحائط ويضع حدا لجموده الداخلى.

أن يلقى بنفسه فى شعور جديد وتجربة جديدة بدون تحفظ وبدون خوف .. لا يهم .. أهى تجربة حلوة أم مرة جميلة أم كريهة .. لأن المهم هى لذة الاكتشاف ..

وبهذا يستعيد الإنسان القلق قدرته على التكيف ويشعر أنه قد إسترد نفسه . ووضع يده على عصا القيادة من جديد .

وأسوأ الحلول التى يلجأ إليها إنسان قلق هى الهروب ..

إن المقاهى وأدمان التدخين وشرب الجوزة ولعب النرد ولعب القمار والمخدرات .. والعادة السرية .. كلها معناها .. ورقة غياب .. يتركها الإنسان القلق على مكتبه ويذهب بدون أن يصطحب نفسه إلى مكان ما ثم يعود دون أن يكون قد أحس بشىء حقيقى ..

أن فترة الهرب فترة ساقطة فى حساب العمر ..

وأسوأ من هذا الحل .. حل آخر يعتمد على الايمان بالشعوذة والأحجبة والأدعية والابتهالات ..

إن هذا الحل مثل البنج .. يصنع للإنسان اطمئناناً وهمياً فتزول المشكلة زوالاً مؤقتاً فى الفترة المحدودة التى يعيشها تحت البنج .. فإذا تبخر البنج من الدماغ أو داعب المؤمن شك أو وسواس أو هاجس .. صحا فجأة على نكسة قلما ينجو منها ..

إن الروحانيات والإيمان المطلق .. والتسليم بالقضاء والقدر .. لا يقدم حلا ثابتاً باقياً لمشكلة القلق .. لأن الروحانيات نفسها ليست أرضاً صلبة تقف عليها الحلول .. أنها هواء .. لا جذور له فى أرض الحقيقة سوى وجوده فى ذهن المؤمن وتشبثه به .. فإذا اضطرب الإيمان .. فإن الانهيار يكون كاملا لا شفاء منه ..

إن القلق مشكلة حقيقة .. تحتاج إلى حل حقيقى واقعى .. وهى مشكلة عاجلة لا تقبل التأجيل .. لأنها مثل محطة لاسلكية للأعداء فى وقت الحرب .. لا تفتأ ترسل فى الذهن إشارات مضللة مخربة .. وعلى هدى هذه البيانات المضللة يتصرف الإنسان القلق .. فيعالج أخطاءه بأخطاء جديدة ..

وهكذا تظل المشكلة تتضخم .. والحمل يزداد ثقلا والظهر ينوء .. وينوء حتى ينقصم فجأة .. وتنتهى حالة القلق بانهيار عصبى أو انتحار أو جريمة ..

أن الخلاص بأى ثمن يصبح ضرورة ملحة فى بعض اللحظات .. الخلاص بأى ثمن حتى بالدم ..

وأمام لحظات الانتحار الجادة .. لا أحد يصبح مسئولا عنا سوى أنفسنا ..

أننا نقف وجها لوجه أمام حقائقنا فأما أن نصل لحل لتناقضنا أو يصل هـذا التناقض إلى قمته فنحاول المحافظة على حياتنا بأن نلغيها من أساسها ..

* * *

إن القرص الواقى من القلق هو ساعة نقضيها فى الفراش قبل أن ننام .. نفكر .. ونفكر فيما فعلناه ونزنه بميزان موضوعى هادىء ..

إن هذه الساعة هى بمثابة تطعيم ضرورى للذهن ضد القلق لأنها سوف تمنحنا معرفة بأنفسنا ..

وإذا عرفنا أنفسنا تمكنا من قيادتها .. وتمكنا من إصلاحها حينما تعطب .. وتجنبنا القلق مدى العمر ..

أنا حرّ

جلست على طرف فراشى أهز ساقى .. لا أعرف ماذا أفعل بنفسى ..

كان على أن أكتب مقالا .. ولكنى كنت أشعر بالملل .. والقرف ..

ما معنى أن ألتزم كل أسبوع بمقال .. وما معنى أن ألتزم بالكتابة من أصله ..

أنا حر ..

لن أكتب هذا الأسبوع .. ولن أشتغل بالأدب ..

سوف أشتغل بالموسيقى ..

وذهبت أبحث عن عودى .. وأخرجته من جرابه ..
وضبطت أوتاره .. ثم بدأت أعزف .. حتى تسلطنت
ورفعت جاعورتى بالغناء .. وبدأت أترنح حتى انقطع
نفسى ثم سكت .

وأخذت أتلفت حولى فى الصالة الخالية من الجماهير ..

وحانت منى التفاتة إلى السماعة المدلاة من الدولاب ..

ونظرت إلى كتاب الأمراض الصدرية الذى اشتريته
بعشرة جنيهات من أسبوع ولم أفتحه .

وتذكرت لماذا لم أفتحه ..

لأنى قلت فى ذلك الوقت .. أنا حر ..

* * *

هل أنا حر حقاً ..

وأخذت أتمشى فى الصالة ..

هل أنا أتمشى الآن لأنى اخترت أن أتمشى أم أنها
أفعال يؤدى الواحد منها للآخر بدون اختيار

كان السؤال بسيطاً جداً

ولكنى قضيت سبعة أيام أفكر فيه وقرأت سبعة
كتب واستشرت سبعة فلاسفة لأجد جواباً شافياً

* * *

هل أنا حر ..

هل أنا أعيش على كيفى .. أم على كيف مدير العمل
أم على كيف المقادير ..

إن الواقع الذى نعيش فيه بدايته مفقودة ونهايته
مفقوده .

اننا نسكن جزيرة معزولة فى بحر الظلمات .. هكذا
يقول لنا جان بول سارتر .. لقد جئنا من عالم مجهول ..
وسوف نذهب إلى عالم مجهول .

وما حياتنا سوى كوبرى معلق فى الظلام .
قنطرة نعبرها ونحن نتخبط دون بوصلة تهدينا إلى الطريق

لا معايير .. لا مقاييس .. لا مثل .. كل هذه الأشياء أتت عن طريقنا إلى الدنيا .

لقد صنعنا الساعات . كما صنعنا المثل .. ثم خضعنا للإثنين .

وهذا هو المضحك . . فقد خضعنا لدخان خرج من دماغنا .

نسينا انا أحرار . فكبلنا أنفسنا بأنفسنا ولكنا أحرار .

وكل شىء فينا يصرخ بأنا أحرار . وحريتنا غير محدودة .

أنا أبدع خيرى وشرى . وأبدع قانونى . وأضع مشروع حياتى . والعقبات التى أظن أنها تقيد حريتى أنا الذى وضعتها فى اللحظة التى اخترت فيها أهدافى .

أنا نسيج وحدى . لا يمكن أن أتحول إلى إنسان آخر . وكل ما أسميه . . يصدر عنى ومنى وإلى . . والواقع يفتح أمامى ويغلق خلفى كالباب الدائرى . وفى النهاية أمضى وحدى حاملا سرى إلى قبرى .

كل محاولة ابذلها لأتصل بالآخرين تبوء بالفشل . فنحن

لا يعرف بعضنا بعضاً إلا من الخارج . من الظاهر . أما باطننا . حقائقنا فهى لا تنكشف لبعضها أبداً . ولا وسيلة لمعرفتها .

حتى الحب يفشل فى تعريف بعضنا بالبعض لأننا فى الحقيقة نحب أنفسنا . . ونحب الآخرين لنمتلكهم . . ولنصل عن طريقهم إلى توكيد ذواتنا . .

وهو حب ينتهى على الدوام بالفشل لأنه لا سبيل إلى امتلاك الآخرين . . وإذا امتلكناهم فلا سبيل إلى امتلاك حرياتهم . .

وإذا أصر الآخرون على الحياة بمنجاة منا . . واحتفظ كل واحد بوجوده لنفسه فإنهم يتحولون إلى سور مضروب حولنا . . ويصبحون جحيما .

أنا مقضى على بالوحدة . . وبالعزلة . . وبالحرية . .

أنا حر سواء عقدت العزم على أن أكون جبانا . .



أم قررت أن أكون شجاعا ..

كل ما أفعله يعبر عنى ...

أفعالى هى أنا ... حتى لو أنكرتها ...

الندم لن يعفينى .. ولن يعفى ذراعى من أعمالها ...

أنا محكوم على بالحرية ...

محكوم على بأن أحب بلا أمل ... وأسير بدون هداية ...

***

هذا هو النشيد الخامس الذى يقدمه سارتر فى تمجيد الحرية ...

ولكنه يعود بعد كل هذا التهليل ... فيصاب بنكسة ... ويهدم كل ما بناه ... فيقول ...

أنى أفقد حريتى فى اللحظة التى أختار فيها ... لأن إختيارى يلزمنى ... يقيدنى ... يلتصق بى كالغراء ...

يصبح ثقلا أجره خلفى ... وأظل أجره ... وأجره ...
ولا خلاص ...

أما يسبرز فهو يهدم الحرية أكثر . وأكثر ...
كلما كان إختيارى عميقا ... كلما خيل إلى أنى لا
أختار ... ولا أنصرف من تلقاء نفسى ... وإنما تسيرنى
قوة تملى على أفعالى ...

أما هيدجر فيصرخ قائلا :

أن أملنا الوحيد فى النجاة ... أن نقول .. نعم ..
لاقدارنا .. وأن نواجه مصيرنا .. ونقبل واقعنا ..

إن الدنيا عبث فى عبث .. وكل ما يبدأ فيها ينتهى .. وكل
ما يولد يموت .. وبطولتنا إذا كانت لنا بطولة .. أن نقول ..
نعم سنعيش ونواجه مصيرنا بالرغم من كل هذه الآلام ...

وهذه هى الوجودية ..

فلسفة بلا أخلاق ..

فلسفة عزلة .. وفشل .. وقلق .. وموت .. وحرية تعيسة

لقد قالت لى الوجودية .. أنت حر .. حر بلا حدود ..
ولكنها علقت حريتى .. وأعدمت وظيفتها .. وأوصدت
دونها الأبواب .. وعزلتنى عن الدنيا .. فلم يتبق لى إلا
الجنون .. أو الانتحار .. أو الاستسلام ..

• • •

وتركت كتب الوجودية .. وذهبت أتجول بين الفلاسفة
أسألهم المعونة ..

هل أنا حر ..

وظللت أدق على كل كتاب ..

وأجابنى كارل ماركس جوابا مريحا .. قال :

إن الحرية لا معنى لها بدون فعل ..

الحرية الحقيقية هى الحرية التى تفعل ..

والحرية لا تستطيع أن تفعل بدون أدوات .

إنى بدون الطائرة والقطار والباخرة والحصان لا أكون حراً فى السفر إلى فرنسا ... إنها تكون حرية عاجزة تشبه نباح الكلاب ... هبهبة بدون جدوى ...

وركوب البحر وركوب الهواء لا يكون ممكناً إلا إذا عرفت قوانين الماء وقوانين الهواء ...

إن العلم هو الذى فتح لى الباب إلى هـذه الحريات باكتشاف قوانين الهواء والماء ... وباختراع السفن والطائرات ...

إن العلم أضاف لى عدة سيقان وعدة أذرع فأصبحت أكثر قوة وأكثر حرية ...

إنه جعل مستحيلات كثيرة ممكنة ...

إن الحرية الحقيقية صناعة يعكف البشر كلهم على عملها... العالم والفنان والسياسى والزارع والعامل يصنعونها بعملية

غزو منظمة يكسبون بها إمكانيات جديدة ... وقوى جديدة ...

أنت حر ولكن حريتك لا سبيل إليها إلا بالجهد الذى تقدمه للغير وتتلقاه من الغير ...

* * *

وأغلقت الكتاب ...

وبدأت أكتب . وقد أحسست بحريتى الضائعة تعود إلى من بين السطور ...

وهذا نصيبي

الفقر والجهل . . والمرض . . والقدر أربع لعنات تدور في حلقة مفرغة وتؤدي الواحدة منها إلى الأخرى . .

الفقر يؤدي إلى المرض والجهل . . والثلاثة يؤدون إلى الإيمان بالنصيب والاستسلام كهرب مؤقت من الأزمة

النصيب بالوعة ومصرف للقاذورات الشرقية جميعا . .

وهو اعتقاد لا يقوم على أسباب . . سوى هذا التعب المستمر من الواقع واليأس من تغييره .

* * *

حينما يدخل السائق السكران في شجرة . وحينما يموت العجوز بالسكتة القلبية . وحينما يتصادم قطاران ويقتل ألف راكب ، وحينما ينهار بيت في السبتية على من فيه ، وحينما

أفقد ساعتي في الزحام ... يقول الناس هذا هو النصيب ... ثم يمصمصون شفاههم ويحمدون الله لأن قضنا أخف من قضا . . فالذي فقد ساعته كان من الممكن أن يفقد حافظته ، والذي فقد ذراعه كان من الممكن أن يفقد عنقه ... والذي مات غرقا كان من الممكن أن يموت حرقا ... والذي مات حرقا مات شهيدا صلوا عليه .. فإذا قال أفندي متحذلق أن السائق كان سكران فاقد الوعي ولو أنه تعقل ولم يسرف في الشراب لما مات ... لوجد ألف رجل يمسك بخناقه ويتهمه بالكفر والزندقه — فكيف يمنع الحذر من المصير ... وكيف يغير العقل من المكتوب .

إن النصيب كما هو في ذهن الناس ليس مجرد لطشة من لطشات المجهول بل هو إرادة ذات حبكة وعملية واعية فيها رسم وتخطيط لا مفر منها أبدا مهما أبدع العقل في وسائله .

هل هذا صحيح . . وهل ما يقول الناس صدق ؟ .

إن الذين يقولون هذا لا يكلفون أنفسهم مشقة البرهان
وإذا طالبتهم بالبرهان نظروا إليك نظرة رثاء وإشفاق
فالنصيب عندهم واضح بالبداهة مثل جدول الضرب والحروف
الأبجدية ... وهم يعتقدون فيه بلا عقل وبلا مناقشة كما كان
الفراعنة يعتقدون فى عجل أبيس ... وليس أمامك إذا
أردت اقناعهم سوى حل واحد ... أن تذبح العجل أمامهم
وتشرحه ... وتقول لهم ... هذا مصرانه ... وهذا طحاله .
إنه عجل مثل أى عجل فى الدنيا .

وسوف أحاول فى هذه السطور أن أفهم معنى النصيب
أن أعرف أين كبده ... وأين طحاله ... وأين مرارته .

* * *

إذا كان المقصود بالنصيب أن هناك قوى فى الطبيعة
خارجة عن إراده الإنسان فالجواب . نعم . فهناك الزلازل

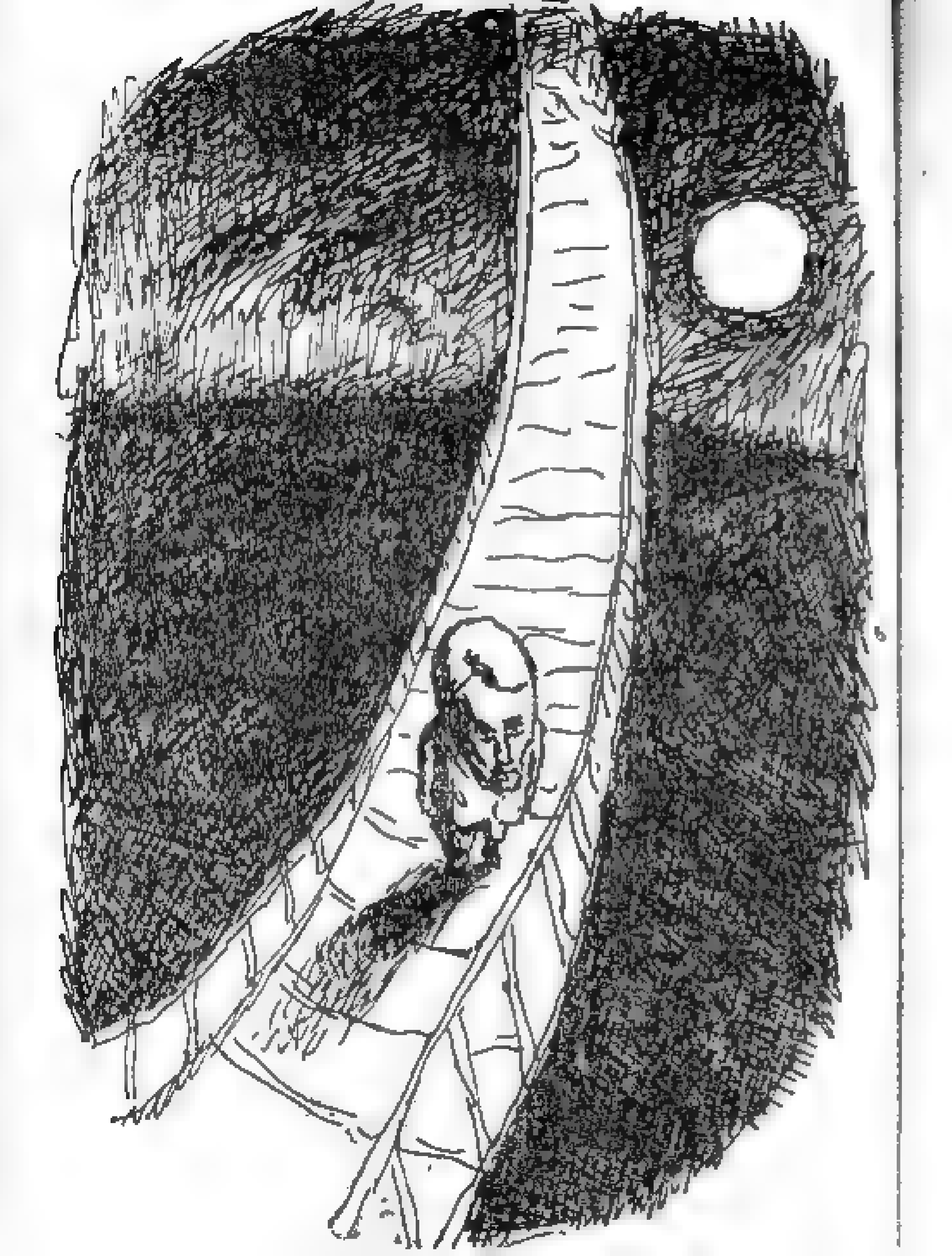
والصواعق والبراكين والعواصف وحركة الأرض والجاذبية
والريح والمطر . وكلها قوى خارجة عن إرادة الإنسان .

وأكثر من هذا . فى المجتمع الإنسانى قوى تعمل فى
الناس كما تعمل الزلازل والبراكين والصواعق .

فى المجتمع عرف وتقاليد وأديان تؤثر فينا كما تؤثر الريح
فى حشيش الأرض .

وفى المجتمع ظروف اقتصادية تحد من حرية صاحب
المليم . وصاحب المليون . . . تصادم المصالح بين الطبقات
وصراع المنتج والمستهلك . وتراكم السلع ، وحركة السوق ،
كل هذه قوى مثل القوى الطبيعيه .

وصاحب المليون بالرغم من قوته وغنـــاه يفقد
السيطرة على مليونه حينما يبيع ويشترى بها فى البورصة . .
لأن البورصة لها قوانين عامة مثل حركة الأرض تخضع
للعرض والطلب وتصريحات ايزنهاور وإضرابات العمال
وحرب كوريا .



وفى المجتمع ارتباطات تربط بينه وبين المجتمعات الأخرى وتربط بينه وبين التاريخ . . وهذه الارتباطات تؤثر فيه ولا يؤثر فيها . . لأنها فوق إرادة أفراده . .

وأكثر من هذا فى داخل الإنسان الواحد . . قوى خارجة عن إرادته العاقلة . . قوى بهيمية تعصف به كما تعصف الزوبعة بالشجرة النحيلة . . الأنانية . . والخوف ــ والجنس ــ والموت . . والحياة . .

أن الإنسان كالشراع الهزيل فى بحر خضم متلاطم الموج من القوى العملاقة التى ترميه باليمين وبالشمال . . وهو يصارع فى بطولة حتى يموت فيسلم الشراع الهزيل إلى أولاده . .

فهل هذه القوى المتلاطمة حولنا هى التى يقصدها البسطاء والسذج . حينما يتكلمون عن النصيب ؟ . لا . . أنهم يقصدون نوعاً آخر من القوى . . قوى لا قبل

للعقل بادراكها .. قوى غير قابلة للتعقل بالمرة لأنها غير منطقية .. علاقتنا بها علاقة حتمية مبرمة لا ينفع فى تعديلها جهد ولا بصر ولا ذكاء .. قوى لا تعمل فى إطار القانون الطبيعى العام . ولكنها تعمل فى إطار خطة خاصة تحبكها حول الإنسان كالشبكة ثم تصطاده فإذا به كالذبابة معـدوم الحيلة . قوى مكتوب عليها .. لا أمل .. لأن الصلة بينها وبين الإدراك والكشف .. مقطوعة .. ولأن علاقتها بالإنسان ليست علاقة سبب بنتيجة بحيث يمكن استنتاجها .

والنصيب بهذا المعنى مبرر لليأس والكسل والتواكل والاستسلام .. وهو لعنة حطت بالشرق إلى مستوى الشلل .. وهو مجرد بعبـع وخرافة مثل شمهورش وأبو رجل مسلوخة ولا يوجد دليل عملى واحد على وجوده والذين يتخلصون من هذا المأزق بقولهم انه فوق العقل .. يوقعون أنفسهم فى مأزق أشد .. لأن فوق العقل كلمة معناها الحرفى انه خرافى .

ما هو دور القوى الحقيقية الموجودة فعلا .. والتى تتلاطم حول شراع الإنسانيـة الضعيف الهزيل .. ما صفاتها ..

أنها قوى من نوع آخر .. ترتبط ببعضها بالأسباب والنتائج .. وتعمل فى إطار القوانين الطبيعية العامة ويمكن للعقل أن يتحكم فيها .. ويضبطها فى حـدود إمكانياته ..

وإذا كان العقل يبدو حيالها عاجزا .. فما هو إلا عجز نسبى .. يتضاءل شيئاً فشيئاً أمام الجهد والذكاء .

فقد ظل الإنسان حائراً أمام قوة الريح .. ثم وضع فى طريقها مروحة وادار طاحونة ونفخ فى شراع .. وما لبث أن اخترع طائرة وامتطى صهوة الهواء كالجواد .

وما فعله فى قوى الطبيعة فعله فى قوى المجتمع .. فقد اكتشف القوانين التى تحرك مجتمعه واستطاع أن يغيره من مجتمع إقطاعى إلى مجتمع رأسمالى إلى مجتمع اشتراكى

انها قوى من نوع آخر تماما غير قوى النصيب المزعومة . . فعلاقة الإنسان بها علاقة طواعية وليست علاقة عجز . . وهو يغالبها ويهزمها شيئا فشيئا .

أما ما يبدو فى الحياة الفردية من حوادث تستعصى على تفسير العقل ... وتتخذ صفة الخطة الغيبية المحبوكة فهى من قبيل الاتفاق ... وكما يقولون ... أن القرد إذا جلس أمام آلة كاتبة يحرك أصابعه إلى لأبد فلابد أنه سوف يكتب فى إحدى المرات قصيدة لشكسبير ... لأن الاحتمالات التى توجد فى زمن لا متناهى ... هى إحتمالات لا حد لها ...

والتفكير العلمى الحديث يمضى خطوة أخرى إلى الأمام فينكر حدوث الصدفة ... إنكارا تاما ... فكل حادث له أسبابه ... ولا توجد حوادث شيطانية تنبت بدون علل ... وكل ما هناك أن بعض العلل تكون

مستترة ... وبعض القوانين التى تربط الحوادث الطبيعية لم يكتشفها العقل بعد ... وهذا النقص فى المعرفة هو الذى يعطى لهذه الحوادث مظهرها الغيبى المعجز ...

وإذا كان لهذا التسلسل المنطقى نتيجة فهى أن النصيب بمعناه المألوف خرافة لا وجود لها ... وبين أيدينا دليل دامغ هو إزدياد متوسط الأعمار بعد إكتشاف العقاقير الحديثة وتقدم الطب الوقائى ... ووزارة الصحة تقدم إحصاءات دقيقة تؤكد النقص المتزايد فى وفيات الأطفال .

إن عمر الإنسان وقع فى يد العلم فعلا ... وها هو يطول فى متوسطه جيلا بعد جيل.

* * *

ما السر إذن فى هذا الإيمان العميق بالنصيب ... عندنا فى الشرق ... السر هو هذه اللعنات الأربع التى تؤدى

بعضها إلى البعض فى حلقة مفرغة . . . الفقر الذى يؤدى
إلى المرض والجهل . . . والثلاثة الذين يؤدون إلى الاستعمار
الذى يبذر هذه اللعنات وينميها . .

* * *

إن أجمل ما قيل فى النصيب ... أنه يكمن فى داخل
الإنسان كما يكمن الجنين فى البذرة .

إن البندقة صغيرة ... لكن فى داخلها يكمن الجذر
والساق والفروع والزهور التى ستنمو فى المستقبل ...

ونحن مثل البندق نحتضن أقدارنا فى داخلنا ومن تفاعل
إرادتنا بالظروف تنمو فروعنا وأزهارنا .

وهكذا نشترك فى صناعة كل حادثة صغيرة وكبيرة
وفى حياتنا .

الرجل الكذاب تسرع نحوه الأكاذيب والعاشق
تتهافت عليه حوادث الحب ...

والشرير تتسابق إليه الجرائم :

ان شفاهنا تتلاقى على حافة نهر الحياة . وكل منا يأخذ
من النهر الجرعة التى تساوى سعة فمه وتلائم سعة أمعائه
ان شخصياتنا تخلق الظروف التى تفصح فيها عن خصائصها
وبهذا المعنى لا يكون النصيب شيئاً جاهزاً مرسوماً من قبل
وإنما يكون كالثوب . نفصله على مقاسنا . ويكون لنا فى
كل حادثة مشاركة ونصيب عادلا وتكون مسئولياتنا كاملة
وهذا الاعتقاد يخرجنا من ملجأ المعجزة الكبير الذى أدخلنا
فيه ذلك البعبع الذى نسميه فى الشرق .. النصيب .

حريتي حقيقة

خطابات كثيرة تحاسبني حساباً عسيراً على ما كتبته . . عن الحرية ..

قليلون يوافقونني على أن الإنسان مخير. وكثيرون يؤكدون أن الانسان مسير مكره مجبر مقضى عليه بمصير محتوم .. لامهرب له منه ..

ابراهيم ناجي شرف الدين يكتب خطاباً طويلا يقول فيه :

يا أخي .. ستة آلاف يوما عشتها ولا أدري لم أعيش ..؟ وإلى أين أسير ..؟

ثلاثة وعشرون عاماً عشتها وأنا أمثل رواية الأبدية .. صحو ونوم .. شراب وطعام .. صمت وكلام .. وداد وخصام .. والأيام تكر .. والسنون تمر .. والعمر يمضي دون أن أعرف من أنا .. ؟ ولماذا أتيت؟ .. وإلى أين أسير ؟

إني أجري وراء المستقبل .. وأمني النفس بالآمال .. ففي المستقبل أبلغ آمالي .. وفيه أصلح نفسي .. وفيه أنيب الى ربي .. وفيه أكتب تلك المعاني التي طالما جاشت بها نفسي .. ولكن المستقبل لا يأتي أبداً .. وحينما يأتي .. يصير حاضراً وأبدأ في التفتيش على مستقبل آخر ..

حينما كنت في الإبتدائية كنت أتمنى أن أصبح تلميذاً في الثانوية . ارتدى البنطلون الطويل وأصفف شعري وأحتفظ بقطع الطباشير الميري لألقيها على أطفال مدرسة الروضة التي تجاور مدرستنا كما كان يفعل معي طلبة المدرسة الثانوية المجاورة ويوم وصلت إلى هذا الأمل هان علي وذهب بهاؤه . وانطفأت روعته وبدأت أنظر إلى مستقبل آخر وأصبحت أتمنى أن أكون موظفاً في الحكومة مثل سيد أفندي الذي يسكن عند خالي وأتأبط الجريدة اليومية وأناقش في السياسة الدولية . وأجلس واضعا رجلا على رجل وألعب الطاولة . وقد كان . إذ ما كادت سنوات أربع تمر

حتى كنت موظفاً بالحكومة . وذقت تلك المرارة التى يشعر بها الموظف والتى كان يخفيها سيد أفندى تحت جاكتته وابتسامته المفتعلة . وهان على الأمر مرة أخرى . وذهب بهاؤه وتغير حالى بانتقالى من عالمى الساذج إلى دنيا الوظيفة بما فيها من تملق ونفاق وكذب .

وجاء أول الشهر لأقبض أول مرتب ... سبعة جنيهات وكنت حينذاك فى أسيوط على بعد مئات الاميال من بلدى وبدأت أشعر بضيق الحياة ... وتبددت أمالى ...

لم أتمكن من الجلوس على مقهى ... ولم أتمكن من تهيئة وقت للمذكرة .. وأصبح التحاقى بالجامعة استحالة ..

وضاقت حرياتى حتى كادت تنعدم . ولم يبق منها الاحرية الحصول على خبز اليوم أتبلغ به لأعيش يوما آخر ..

أين الحرية التى تتشدق بها .. وتملأ بها صفحتين فى مقالك ..

هل أتاجر ..وكيف..وأنا لا أكاد أملك إلا الكفاف ولا أصلح إلا لمشوار واحد . من الديوان إلى البيت ، ومن البيت إلى الديوان .

كيف أتزوج ، وكيف أعيش ، وكيف أستمر فى تعليمى ، وكيف أحفظ صحتى ، كيف أوفر كل هذه الحريات وليست لدى امكانيات .

إنى لا أملك إلا حرية واحدة ، هى حرية قتل نفسى ، إذا كنت تظن أن هذه حرية .

* * *

ويكتب إلى سمير زكرى سوريال بحقوق القاهرة قائلا :

إذا كنا أحراراً فما معنى القانون . والأخلاق .. والأديان .. والمدنية ..

إن كل هذه الاشياء قيود على حرياتنا ..

أن القانون يمنعنى من أشياء .. والاخلاق تحرم على

أشياء أخرى .. والأديان تخيفنى من أشياء ثالثة .. وتقيم على رأسى إلها يعز ويذل ويحيى ويميت ويخلق ويفنى إله أنا إلى جواره ذبابة .. بل ذرة رمل . بل هباء ..

والمدنية تربطنى بعجلة الأسرة والبيت والمصنع والآلة .. وتضبطنى كالساعة على مواعـــيد أنام فيها وأصحو فيها ...

وإذا رفض رئيس التحرير نشر مقالك وقطع مرتبك ..

أين تكون حريتك ..

أن الحياة حولنا قيود فى قيود ..

* * *

ويتحدانى محمد عبد القادر قائلا ..

أين هى حريتك ..

هل اخترت مولدك ..

هل اخترت اباك وامك ودينك ووطنك .

هل اخترت شكلك وطولك وعرضك .

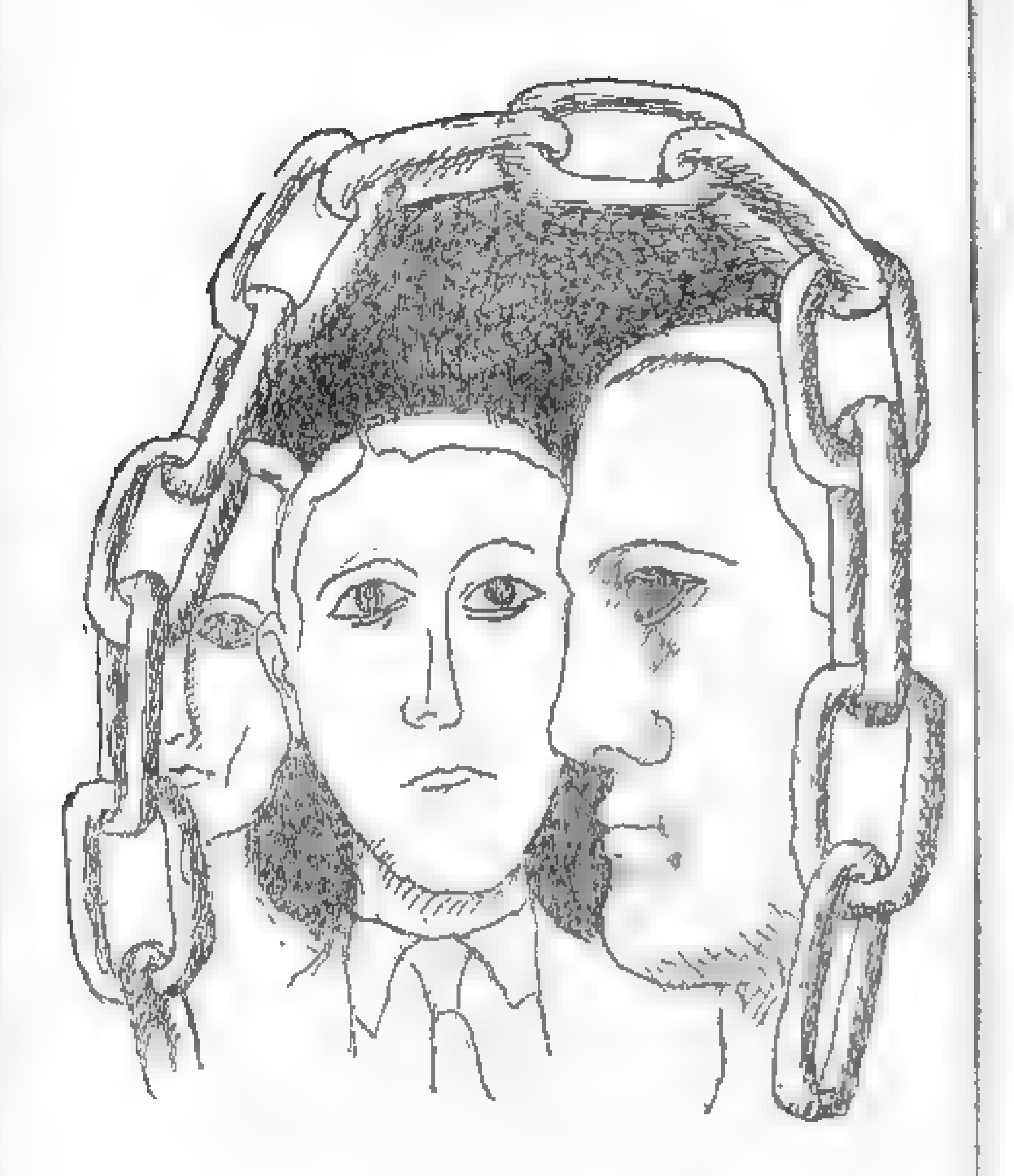
هل إخترت النظام الإقتصادى الذى تعيش فيه ..

لقـــد استشهدت بكلام كارل ماركس لتدلل على حريتك .. ولكن نظام كارل ماركس نفسه يرسف فى القيود . فالاشتراكية معناها تجنيد الكل فى مصنع واحد إسمه الدولة .. وتأميم كل المرافق وكل الموارد وكل طاقات الانتاج .. بما فى ذلك الأيدى والأرجل والعقول فأين هى الحرية ..

* * *

ويكتب عبد الرؤوف .. ليسانس فلسفة ، بحثا يقول فيه .. أنى أكون حرا .. حينما أكون أنا الله .. أو حينما أكون أنا العالم .. حيث لا يوجد شىء سواى .. أخضع له .. وانقيد به ..

إن الحرية الكاملة تستلزم عدم وجود شىء غيرى ..



لأن أي شيء يحدنى .. الناس .. والطبيعة .. والظروف .
كلها حدود . ومثل هذه الحرية مستحيلة ..

وإذن فأنا لست حرا إلا بقدر ما عندى من وسائل
تحقيق هذه الحرية ..

ان حريتى مشلولة وناقصة ..

° ° °

والقراء يحشدون كل أسلحتهم ضدى .. ويشحذون
أدمغتهم .. ويصرخون فى وجهى فى صوت واحد ..
وهذا وحده أول دليل على حريتهم .. فقد صنع كل واحد
منهم رأيا مستقلا ولم يتقيد بمقالى ولم يخضع لوجهة نظرى

وانتقل الى اعتراضاتهم فأقول أنها جميعا تدور حول
نقطة واحدة هى القيود المضروبة حولنا ..

وبعض هذه القيود تصل الينا بالوراثة مثل الاسم
والجنس والدين والوطن .. فنولد بها كما نولد بجسمنا

وبعضها يصل إلينا من بيئتنا . . مثل الطبيعة التى نعيش فيها . . حرها وبردها ورعدها وميكروباتها وأمراضها وناسها . .

وبعضها من صنعنا وإبتكارنا . . مثل القوانين والأخلاق والأديان والنظم السياسية . .

وجميعها فى النهاية . . تقيدنا . . فــلا يبقى لنا إلا القليل . . أو ما دون القليل . .

وهــذا ما يجعل القارىء عبد الرؤوف يقول : إن الحرية مستحيلة . . . وأنها إذا كانت ممكنة فليس لهــا إلا طريق واحد . . . أن يفنى كل شىء حولنا وينعدم . . . وأن أصبح وحيدا منفردا مثل الله بلا شريك . . وبلا آخرين معى وبلا أشياء . . ذات صرفة مجردة بدون مقاومات من أى نوع . .

والقارىء يسى أن الحرية تفقد كل معناهــا بمجرد

سقوط المقاومات حولها . . لأن انعدام المقاومات حولى . . وامتلاكى لكل شىء فى كل وقت معناه انتفاء كل نقص عندى ومعناه كمالى لأنى أصبح الكل فى الكل . . وبالتالى تنعدم مطالبى ورغباتى لأن المطالب والرغبات منبعها إحتياجاتى . .

وبانعدام الرغبة يسقط معنى الحرية . . لأنها تكون إستهدافا فارغا إلى لا شىء . . وتكون هى ذاتها لا شىء

إن مشكلة الحرية ترتبط دائما برغبة تتأجج فى الصدر ومقاومة تقف فى سبيلها :

وتتأكد الحرية بانهيار هذه المقاومة وتراجعها أمام الإرادة

بهذه الصورة الجدلية تكشف الحرية عن مدلولها فى الواقع .

أما الإنسان الأوحد المنفرد الذى تلاشت من أمامه

الظروف والمقاومات وإنعدم كل شيء حوله ..وأصبح هو الكل فى الكل .. واشتمل على العالم فى ذاته . وتحول إلى اله ..

ماذا يطلب هذا الكائن . وأى شيء يعترض مطلبه لتصبح حريته أو عدم حريته محل سؤال .

أين الصراع الذى تكشف الحرية مدلولها من خلاله ..

إن مثل هذا الكائن لا يتحرك ولا يرغب ولا يأكل ولا يشرب ولا ينمو ولا يكبر ولا يموت ولا يولد ..

انه يعيش فى سكون وأبد .. وعالم بلا زمان وبلا مكان .. وكلمة الحرية بالنسبة له كلمة خرافية ..
حرية ماذا .

ماذا يطلب وهو المستغنى المكتفى بذاته ..

ان الحرية كلمة بشرية صرفة .. كلمـة لا معنى لها الا بوجود القيود .. بوجود المقاومات .. بوجود الظروف التى يصرخ منها القراء .. ويضجون ويشتكون .

ان نطاق الحتمية المضروب حولهم هو الذى يجعل لحريتهم معنى وليس هو الذى يهدمها كما يظنون .. لأن الحرية تعبر عن نفسها باختراق الظروف .. وزحزحة المقاومات .. وهدم العقبات

الحرية عملية مرتبطة باحتكاك الانسان ببيئته وظروفه ويلغيها أن يصبح الناس آلهة ... ان السؤال المهم هو .

هل تذوب المقاومات مع الزمن ..
هل تتقهقر العقبات . عقبة خلف أخرى تحت ضغط الارادة . واصرار الانسان . أم أن كل حياتنا كالحارة السد ..

والجواب .. نعم . تتقهقر العقبات . ويتقدم العلم ويتحكم فى الحر والبرد ، والريح والماء والهواء . ويطور القوانين والانظمة إلى أحسن . وأحسن .

وفى هذا دليل واقعى أكيد على حرية الانسان ...اضغط

على الزر الكهربائى فى غرفتك فينتشر الضوء . وينهزم الظلام . .

ألا تحس أن هذا الكسب العلمى البسيط أضاف إلى حريتك . .

ومثل هذا الكسب ألوف غيره تنتفع بها فى كل لحظة . . حينما تضع رجلك فى ترام أو تدخل سينما . أو تقرأ كتابا . . أو تتحدث فى تليفون . .

أن كل شىء يصرخ فى عينيك بأن الحرية حقيقة والتاريخ يلهث جريا إلى الأمام ليؤكد لك أنك حر . . والأقمار الصناعية تهتف فى الفضاء بأنه . . لا مستحيل . . ولا عقبة فى الأرض أو فى السماء تقف أمام أرادة البشر . .

وما القدر إلا مجرد واسطة تكشف بها الحرية عن ذاتها وتؤكد وجودها .

° ° °

وأعود إلى حكاية التأميم فى الدول الاشتراكية . . التى يعترض عليها محمد عبد القادر ويقول أنها تقضى على الحرية

وأجيب بأن التأميم مثل أى نظام مبنى على دفع أقساط شهرية . .

فى التأميم يدفع كل فرد قسطا شهريا من حريته فى سبيل تأمين هذه الحرية طول الحياة . . وفى سبيل امساح امكانياتها أضعافا مضاعفة . . وهذا هو الاساس البسيط لكل النظم التعاونية . . ماركسية وغير ماركسية . .

أقوال غير مأثورة

● الإنسان مغرم دائماً بالتضحية .. كان فى أول حياته يذبح نفسه قرباناً لله .. ثم بدأ يذبح خروفاً .. والآن هو يذبح الآخرين .

ضابط متقاعد

● رضى الضمير مستحيل .. وفى اللحظات التى يخيل إليك أن ضميرك رضى عنك .. لا يكون فى الحقيقة قد رضى وإنما يكون قد مات ..

« معذب »

● أنا لا أحب لبس الساعات . لأنى أبدأ بأن أضبطها على مواعيدى . وتنتهى هى بأن تضبطنى على مواعيدها .

فوضوى

● نحن أكثر وحشية من النمر .. فالنمر يقتل ليأكل أما نحن فنقتل لنجعل من قرن الحيوان الذى نقتله رأساً لعصا .

«تاجر عصى ومنشات بطنطا» :

● الصدق هو الكذب الذى لم نكتشفه بعد .

« انسان متشائم »

● اذا جثم عليك كابوس الملل .. إبحث عن واحد يمل معك . وأفضل أن تكون واحدة .

أخصائى فى التسلية .

إذا وجدتنى أكذب لاتلمنى وإنما لم نفسك . ولم الألف وخمسمائة مليون انسان الذين يعيشون فى العالم .. لأنكم أنتم الذين جعلتم حياتى غير ممكنة بدون كذب .

« كذاب » .

ماذا يريد السود منا .. لقد ادخلنا فى بيوتهم الماء والنور وانجيل السيد المسيح .. وعلمناهم القراءة والكتابة . ثم شنقناهم لنعلم غيرهم .

أليس هذا أمراً طبيعياً .

« استعمارى أبيض » .

● الدبلوماسى هو الرجل الذى يحدثنى وهو يكرهنى

فأظن أنه يحبنى .

● الذى يقول أن الشمس خلقت لتضىء الإنسان : كن يقول إن الخيول خلقت لهاديول لتصنع منها المنشات :

مفكر

● الحب هو الجنون الوحيد المعقول فى الدنيا .

عاشق

● الطريقة الوحيدة لتجعل أمرأة صماء تسمعك . هى أن تقول لها أتزوجك .

« طبيب أنف وأذن . »

● سلة القمامة التى نلق فيها بكل أفعالنا : هى كلمة قسمة ونصيب :

« كناس فى شارع الفلسفة »

● الرجل الذى يحب عشرة نساء . . حياته فارغة . والرجل الذى يحب أمرأة واحده حياته مليئة .

« روميو »

● الخبث هو الحل الوحيد أمام الفتاة لتحتفظ بسمعتها وتتمتع بحريتها فى نفس الوقت . وتواجه مجتمعاً يسألها كل يوم . أين كنت هذا المساء .

« أب ماكر »

● الزواج كالماء والحب كالليموناده قد تكون الليمونادة طعمها أحسن ولكن الماء ضرورى جداً للحياة.. لاتقوم لها قائمة بدونه .

خبير فى الحب والشئون الزوجية .

● الحبيب الغيور له ألف عين . . وهو مع ذلك أعمى .

« حبيبة مخلصة »

● إذا خلصت الحب مما فيه من أنانية وشهوة جنسية ورغبة فى حفظ النوع . . فإنه لن يبق لك إلا . . الإنسانية . .

ماجستير فى العلاقات العاطفية

اسق حبيبتك من كأسك .. حذار أن تسقها من نفسك .. إننا حينما نعطى نفوسنا للنساء نعجز عن استردادها .. إننا نذوب فيهن كما يذوب السكر فى الماء ويصبح من المستحيل فصلنا من جديد بدون اللجوء إلى النار والغليان والتبخير .

وحينما يذوب الرجل فى المرأة يضعف ويصبح مثل ظلها .. والمرأة لا تحب الرجل الضعيف حتى لو كانت هى سبب ضعفه ..

« شاعر ضيعته امرأة »

حينما أرغب فى التطلع إلى وجهى أنظر إلى المرآة .. وحينما أرغب فى التطلع إلى نفسى أنظر فى عين حبيبتى ..

« عاشق »

المجرمون واللصوص يبتزون أموالى . ولكن قسوة الناس العاديين حولى . قسوة أمى وأبى وأخوتى .. تبتز روحى . تبتز أخلاقى .. فأتحول إلى إنسان خشن غليظ قاس .. ليت الأمر وقف عند ابتزاز المال .. لكان أهون ..

« إنسان رقيق »

المرأة التى تحرص دائماً على الاحتفاظ بزوج وعشيق فى وقت واحد .. لا تحب الاثنين فى الحقيقة .. ولكنها تحب نفسها ..

رجل مضرب عن الزواج
ومضرب عن العشق

المؤلف



مصطفى محمود

- تخرج من كلية الطب بالقصر العينى وتخصص فى الأمراض الصدرية ثم تفرغ للكتابة
- بدأ يكتب القصص القصيرة من عام ١٩٤٧ فى مجلة الرسالة

- واشتغل بعد ذلك بآخر ساعة وأخبار اليوم والتحرير وروز اليوسف
- أخرج كتاب .. أكل عيش .. الله والإنسان .. قطعة السكر اعترفوا لى .. إبليس ...
- يعتقد أن مشكلة الجيل الحقيقية هى مشكلته مع نفسه ،مع مثالياته وأهدافه ، فقد حطم مصابيحه القديمة التى كان يسير على نورها ، ولم يصنع بعد مصابيح جديدة . . وهو يتخبط بين متناقضات عنيفة تمزقه ، ولهذا كان ، من واجب الكاتب فى نظره هو تصفية هذه التركة القديمة من المثاليات والأهداف ، وخلق أهداف جديدة تنبض بروح العصر ... إن الإيمان ضرورى ، ولكن بأى الأشياء نؤمن ؟ هذا هو السؤال الذى يجيب عليه الكاتب فى كل مقالاته وقصصه .
- لا يلتزم فى الكتابة إلا الصدق نحو الواقع الحى الذى يعيش فيه
- ما زال أعزب حتى كتابة هذه السطور

الرسام



رجائى

- بدأ يرسم للصحف منذ عام ١٩٥٥
- اشتغل فى دار الهلال وروز اليوسف
- عرضت لوحاته الزيتية فى معرض الهيلتون فى أكتوبر ١٩٥٩ ولاقت نجاحا كبيراً
- يحاول بخطوطه أن يكشف عما وراء الواقع ليرسم العواطف والأفكار والمعانى ويظهر الجزء الباطن المكنون من شخصية الإنسان

- لا يؤمن بالتقيد بالواقعية التشريحية للانسان والموضوعات التى يرسمها ، لأن الواقعية فى نظره ليست المطابقة الشكلية الفوتوغرافية وإنما هى مطابقة من نوع أعمق وأرقى ، مطابقة لحقيقة الموضوعات وجوهرها الداخلى ، أنه يهدف إلى رسم الإنسان من الداخل إلى رسم باطنه ونواياه ، ولهذا يعمد أحيانا إلى الأخلال بعلاقاته التشريحية فى سبيل كشف هذا المضمون والتعبير عنه

الفهرس

مقـــدمة ٣

حقيقة الحب ١١

إبليس ٤١

محنة القلق ٨٧

مخير لا مسير ١٣٣

أقوال غير مأثورة ١٧٣